

الاستغاثة بالله

أشرف مطلوب

وصرفها لغيره - تعالى - أعظم الذنوب

- تأصيل وتدليل -

- وإيراد أشهر الشبهات والردود والجوابات -

بقلم

أبي عبد الرحمن محمد بن يوسف خنشان



الاستغاثة بالله أشرف مطلوب

وصرفها لغيره - تعالى -

أعظم الذنوب

مُحَقَّقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

- الطبعة الأولى -

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الاستغاثة بالله

أشرف مطلوب وصرفها لغيره - تعالى -
أعظم الذنوب

- تأصيل وتدليل -

- وإيراد أشهر الشبهات والردود والجوابات -

بقلم

أبي عبد الرحمن محمد بن يوسف خشان

مِنْهَا لَآئِكٌ وَفِيهَا كَلِمَاتٌ
بَازِيَاتٌ

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده، و نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهَذَا فَازٌ عَظِيمٌ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فقد استقر في قلوب الموحدين، حتى صار حقيقةً راسخةً رسوخ الجبال الرواسي أن تحقيق التوحيد بكماله وتمامه هو أشرف أعمال العبد وأعلى واجباته، فهو أصل كل خير في الدين والدنيا، كما أن الشرك هو أصل كل شر في الدين والدنيا.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الاسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - : فالتوحيد أصل كل

خير وجماعه، و الشرك أصل كل شر و جماعه، و الموجبتان : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار.

ولهذا لما جمع - سبحانه و تعالى - بين ما أمر به و بين ما حرمه في قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ثم قال - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ^(١) اهـ.

ويقول - رحمه الله - :

ومعلوم أن الشرك أعظم الذنوب، كما أن التوحيد أعظم الحسنات، كما في حديث ابن مسعود في «الصحيحين» قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» ^(٢) إلى آخره.

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر أنه لا يغفر الشرك، وما دونه موقوف على المشيئة.

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٣٥ - ١٣٦).

(٢) «البخاري» - كتاب التفسير - باب قوله - تعالى - : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ - رقم ٤٤٧٧ - (٨ / ٢٠٥ فتح)، و«مسلم» - كتاب الإيمان - باب (كون الشرك أقيح الذنوب وبيان أعظمها بعده)، برقم (٢٥٣) (٢ / ٢٦٧ - نووي).

وأعظم ما دعا الله الخلق إليه في كتابه، ودعت الرسل هو: التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو أصل دعوة الرسل، وأساسها، ورأسها، وأكمل ما فيها، وبه بعث الله جميع الرسل، كما قد صرح به القرآن في أكثره فهو مملوء به^(١). اهـ.

ويقول - رَحِمَهُ اللهُ -:

وهذا باب واسع؛ فلا يُعرف في دين الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم من الأولين والآخرين، ولا كتب رب العالمين، أمراً أعظم من التوحيد، وهو أول الكلمات العشر التي في التوراة، ونظيرها الوصايا العشر التي في آخر الأنعام^(٢).

وأهل التوحيد هم المستحقون للشفاعة يوم القيامة كما ثبت في «الصحيح» أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال ﷺ: «يا أبا هريرة! لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصاً من قبل نفسه»^(٣). اهـ.

ولذلك كان من أوجب الواجبات على أهل التوحيد ودعائه الصادقين أن يسلكوا سبيل السلف الصالح في تقرير التوحيد، والذب عنه بالعلم الراسخ، والحق الواضح، بياناً لحقائقه، ونشراً لفضائله، ثم دفعاً لمعارضه ومناهضه، وتحقيقاً لسنة

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٥).

(٢) وهي الآيات من قوله - تعالى -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِي السِّلَاحِ لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

(٣) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٦-١٤٧).

التدافع بين معسكر الحق ومعسكر الباطل .

قال الله - جل وعلا-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ومما يجعل في القلب جرحاً لا يندمل -إلا أن يشاء الله- تلك الدعوات البدعية الشريكة، المنتشرة في أصقاع الأرض شرقاً وغرباً، وما تبثه من شريكيات فيها محادة لله في أعظم حقوقه، حتى صارت الشُّبُهَة تتخطف العامة من الناس، بل بعض الخاصة، لذا كان لزاماً على أهل السنة ودعاة التوحيد أن يتنادوا، وأن يشدوا العزم في بيان التوحيد، ونشر فضائله ومحاسنه وأن ينقُّوه مما علق به من الباطل، فما انتشرت البدع، وما ظهر الشرك بصوره الكثيرة والمتنوعة، حتى صار أهله يجهرون به في كل نادٍ ووادٍ، إلا حين قصر أهل العلم ودعائه الصادقين عن بيان الحق الذي يعتقدونه ويدينون لله به، فكلما ضعف نور النبوة؛ كلما اشتدت ظلمة الباطل والبدعة، والعكس بالعكس.

واعلم - وفقني الله وإياك - أن الكلام في هذه الرسالة مختص بفرع من فروع توحيد الألوهية أو الإلهية^(١) وهو الكلام على مسألة الاستغاثة والدعاء، وما يتصل بهما، وقد اقتصر فيها على رؤوس المسائل، وأصولها الكبرى، فمن تحررت عنده الكليات؛ سهل عليه فهم ما دونها من الجزئيات، وإلحاق الشبيه بالشبيه، والنظير بالنظير من المسائل.

لذلك كانت هذه الرسالة تحريراً لأصول المسائل، وبياناً للدلائل، وردّاً

(١) وسيأتي الكلام عن أنواع التوحيد ومعانيه.

لشبهات الباطل، ونشرًا للصوابِ الحقِّ في هذا الباب، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

ولا يفوتني أن أشكر فضيلة شيخنا علي الحلبي - أعلى الله قدره في الدارين - على تفضُّله بالنظر في هذه الرسالة، وإتحافي بملاحظاته وتعليقاته، والتي أثبتُّها في مواضعها من الحواشي، وصدَّرتها بـ (قال شيخنا).

فالله أسأل أن يُجزل له المثوبة، ولجميع مشايخنا وإخواننا.

والحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو عبد الرحمن محمد بن يوسف خشان

عمان - الأردن

حقيقة التوحيد - أنواعه وأقسامه ، جوهره ولُبه -

التوحيد: هو إفراد الله - تعالى - بما اختص به نفسه، وهو أنواعٌ ثلاثة:

أولها: إفراده بالربوبية؛ أي: إفراده - سبحانه - بأفعاله؛ كخلقه، وملكه، ورزقه، وتصرفه، وتدبيره، وهذا التوحيد أقرت به سائر الأمم إلا شرذمة من البشر.

يقول العلامة المقرئ - رحمه الله -: ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه - سبحانه - وحده خالقهم وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله - تعالى - عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فلما سَوَّوا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يُسَوُّون غيره به.

وقوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق: مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين^(١). اهـ.

ثانيها: إفراده بالألوهية؛ أي: إفراده - سبحانه - بسائر أنواع العبادة من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وصلة رحم، ومحبة، ورغب، ورهب، وتوكل، وخوف،

(١) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٤٠ - ٤١).

ورجاء، ودعاء، ونحوها، فالعبادة هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة^(١). ويمكن أن يقال: هي خضوع اختياري يُطلب به نفع غيبي^(٢).

وهذا التوحيد هو الذي بعث الله به الرسل أجمعين - عليهم الصلاة والسلام - من أولهم إلى آخرهم، من أجل تحقيقه وتثبيته، وفيه المعركة بين معسكر التوحيد والإيمان، ومعسكر الشرك والكفران، وبسببه انقسم الناس فريقين فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير^(٣).

(١) انظر: «رسالة العبودية» لشيخ الاسلام (ص ٦) مع شرحها للراجحي ، و«الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٨٩ - ٢٩١).

(٢) انظر: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٣/ ٧٣٣) للعلامة المعلمي اليماني ضمن مجموع آثاره رحمته.

(٣) يقول أحمد زيني دحلان في «الدرر السنية» (ص ٣٧): «وأما جعلهم التوحيد نوعين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية؛ فباطل أيضاً، فإنَّ توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية». اهـ. قلت: بل قوله الباطل، شرعاً ولغةً، أما شرعاً فإنَّ نصوص الكتاب العزيز متواردة متكاثرة وستأتي في الإخبار عن إقرار المشركين بالله ربّاً وخالقاً ومدبراً، وأما لغةً؛ فإنَّ ما ذكره مخالف لدلالة اللغة، فالرب (والإله) معنيان متغايران، وهذا متفق عليه عند أهل الشأن وأئمة اللغة.

ودحلان وأمثاله من المعاصرين من أعداء التوحيد، حين لم يفرقوا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فيجعلونهما شيئاً واحداً، وهو الإقرار بوحداية الله تعالى في الخلق والتدبير، هم بهذا لا يرون في صرف الدعاء، والاستغثة، والذبح، والنذر، ونحوها من العبادات لغير الله مخالفة للتوحيد، ما دام الاعتقاد قائماً على تفرد الله بالربوبية، ولذلك انفتحت عليهم أبواب من الشرك المطابق لما كان عليه أهل الجاهلية الأولى وهو يظنونهم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - : «والقرآن عامته هو في تقرير هذا الأصل العظيم، الذي هو أصل الأصول»^(١). اهـ.

وثالثها: إفراده - سبحانه - بأسمائه وصفاته؛ أي: إفراده بما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء الحميدة والصفات المجيدة، على ما يليق بجلال الله وكماله.

ولما كان الكلام في هذه الرسالة متعلقاً بمسائل الاستغثة وما يتصل بها؛ فأقول مستعيناً بالله - جل وعلا - :

التوحيد في حقيقته وجوهره هو تَعَلُّقُ وتَأَلُّهُ للرب، وانقطاعٌ إليه بالكلية، بحيث لا يلتفت القلب إلى غيره، بما يقتضي قطع العلائق والوسائط بين الرب وعبد، بإفراده - سبحانه - بسائر أنواع العبادة.

يقول العلامة أحمد بن علي المقرئ الشافعي - رَحِمَهُ اللهُ - (٨٤٥هـ) :

«فإن التوحيد حقيقته: أن ترى الأمور كلها من الله - تعالى - رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى، وهذا المقام يثمر التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله - تعالى -،

تعظيمًا لشعائر الله، وهو شرك بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٠١ - ٢٢٩)، ونُقِصَ خلطهم هذا بين

نوعَي التوحيد تراه في (١/ ١٧٣ وما بعدها) من المرجع السابق.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٨).

والتسليم لحكمه.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية: منه - تعالى - لعباده، والتأله: من عباده له - سبحانه -، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه - عز وجل -.

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا: توحيد الله - تعالى - غير أن التوحيد له قشرتان^(١):

الأولى: أن تقول بلسانك: (لا إله إلا الله)، ويسمى هذا القول توحيدًا، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى، وهذا التوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يخالف سرّه جهره.

والقشرة الثانية: أن لا يكون في القلب مخالفة، ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة الناس.

ولباب التوحيد: أن يرى الأمور كلها لله - تعالى -، ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط، وأن يعبد - سبحانه - عبادة يفرد بها، ولا يعبد غيره^(٢).



(١) أي: أصلاً أو حقيقتان.

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٣٨ - ٣٩) للمقريزي.

معنى (الإله) - تفسيراً وتبصيراً -

وهذه مسألة جليلة القدر عظيمة النفع لمن تأمل. وذلك لما يترتب على الغلط فيها من كفر صريح وشرك قبيح. حيث إن تحقيق ما هو شرك وما ليس بشرك متوقف على تحقيق معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

يقول ذهبي عصره العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي -رحمته-:

«فإني تدبّرت الخلاف المستطير بين الأمة في القرون المتأخرة في شأن الاستعانة بالصالحين والموتى. وتعظيم قبورهم ومشاهدتهم. وتعظيم بعض المشايخ الأحياء. وزعم بعض الأمة في كثير من ذلك أنه شرك. وبعضها أنه بدعة. وبعضها أنه من الحق. ورأيت كثيراً من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيّين والجن. بما يطول شرحه. وبعضه موجود في كتب التنجيم والتعزيم؛ كـ «شمس المعارف»^(١) وغيره. وعلمتُ أن مسلماً من المسلمين لا يُقدم على ما يعلم أنه شرك ولا على تكفير من يعلم أنه غير كافر. ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك فإذا هو بالاتفاق؛ اتخاذ غير الله -عز وجل- إلهاً من دونه أو عبادة غير الله -عز وجل-، فاتجه النظر إلى معنى (الإله) و(العبادة)؛ فإذا فيه اشتباهٌ شديد، فإن

(١) «شمس المعارف ولطائف العوارف» لأحمد بن علي بن يوسف البوني، والمتوفى سنة

(٦٢٢هـ). قال شيخنا: وهو من كُتِب السحر المشهورة المتداولة وللأسف بين كثير من

الجهلة. اهـ. انظر: «كشف الظنون» (١٠٦/٢).

المعروف في تفسير (إله) قولهم: (معبود) أو: (معبود بحق)، ومعنى العبادة مشبته جداً، فعلمت أن ذلك الاشتباه هو سبب الخلاف، وإذا الخطر أشد مما يُظن؛ لأن الجهل بمعنى (إله) يلزمه الجهل بمعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهي أساس الإسلام، وأساس جميع الشرائع الحقّة من قبل؛ قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ^(١).

وتأسيساً على الذي أنف من كلام العلامة المُعلمي اليماني - رَحِمَهُ اللهُ - نقول - وبه سبحانه نصول ونجول - :

الإله: هو المألوه الذي تأله القلوب، بالمحبة، والخضوع، والانقياد، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من: الرغبة، والرغبة، والتوكل، والاستغاثة، والدعاء، والذبح، والنذر، والسجود؛ وجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة؛ فهو إله، بمعنى: مألوه؛ أي: معبود.

وسائر أهل اللغة على أن هذا هو معنى الإله ^(٢).

قال الجوهري: أله بالفتح، إلهة؛ أي: عبد عبادة، قال: ومنه قولنا: الله، وأصله: إله، على فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه بمعنى: معبود، كقولنا: إمام على وزن فعال، بمعنى: مفعول؛ لأنه مؤتم به؛ قال: والتأليه: التعبيد؛ والتأله: التنسك والتعبد.

(١) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله»، (٢/ ٣٤).

(٢) يقول العلامة المقرئ: «ولهذا كان أصل (الله) الإله، كما قال سيويه وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم». اهـ. «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٤١).

قال رؤبة:

لله دُرُ الغانيات المَدَّة سَبَحَنَ واسترجَعَن من قائله^(١)

وقال في «القاموس»: «أَلَه، إِلَهَةٌ، وَأَلُوَهَةٌ: عِبَادَةٌ؛ ومنه لفظ الجلالة؛ وأُخْتَلَفَ فيه على عشرين قولاً؛ يعني: في لفظ الجلالة، قال: وأصله: إِلَهٌ، بمعنى: مألوهٌ؛ وكل ما أُتِخِذَ معبوداً: إِلَهٌ عند مُتَخِذِهِ؛ قال: والتَّأَلُّهُ: التَّنَسُّكُ والتَّعَبُّدُ»^(٢).

يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين -رَحِمَهُ اللهُ-: «وجميع العلماء من المفسرين، وشرح الحديث، والفقهاء، وغيرهم، يفسرون الإله بأنه: المعبود، وإنما غلط في ذلك بعض أئمة المتكلمين، فظن أن الإله هو القادر على الاختراع، وهذه زلة عظيمة وغلط فاحش، إذا تصوره العامي العاقل تبين له بطلانه، وكأن هذا القائل لم يستحضر ما حكاه الله عن المشركين في مواضع من كتابه، ولم يعلم أن مشركي العرب وغيرهم يقولون بأن الله هو القادر على الاختراع، وهم مع ذلك مشركون»^(٣).

وفي بيان المعنى -نفسه- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: «وليس المراد بـ(الإله) هو القادر على الاختراع، كما ظنه مَنْ ظنه مِنْ أئمة المتكلمين؛ حيث ظنوا

(١) «مجموع أشعار العرب»، وهو مشتمل على (ديوان رؤبة بن العجاج) (ص ١٦٥)، وانظر: «الكامل» لابن المبرد (٢/ ١٠٥١)، و«لسان العرب» (١/ ١٩٨).

(٢) انظر: «ترتيب القاموس المحيط» (١/ ١٧٣) للطاهر أحمد الزاوي، وانظر للفائدة: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٢/ ٣٨٧ وما بعدها).

(٣) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٩٦ - ١٩٧)، و«شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٤٢).

أن (الإلهية) هي: القدرة على الاختراع دون غيره. وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره؛ فقد شهد أن لا إله إلا هو. فإن المشركين كانوا يقرّون بهذا وهم مشركون. بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يُعبد فهو (إله) بمعنى: (مألوه)؛ لا (إله) بمعنى: (آله).

والتوحيد: أن يُعبد الله وحده لا شريك له. والإشراك: أن يُجعل مع الله إلهًا آخر. وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر المتسبون إلى السُنّة إنما هو توحيد الربوبية. وأن الله رب كل شيء. ومع هذا فالمشركون كانوا مقرّين بذلك مع أنهم مشركون. ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد. ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا، فضلًا عن أن يكون وليًا لله. أو من سادات الأولياء»^(١). اهـ.

ويقول -أيضًا- العلامة المقريري -رحمته- والإلهية: كون العباد يتخذونه -سبحانه- محبوبًا. مألوهًا. ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبار والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكل. ونحو هذه الأشياء»^(٢). اهـ.

فهذه النقولات وغيرها مما هو في معناها تبين صراحةً مذهب أهل السُنّة. واتفاقهم على أن معنى (الإله) هو: (المعبود). وبنظرة -ولو عَجَلَى- في كتب التفسير نجد ظهور هذا المعنى بجلاء لا يخفى إلا على غارق في ظلمات جهله. أو مغلوب بهواه على أمره^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠١ - ١٠٢).

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٣٨).

(٣) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٤٣).

وحين يقرر عامة المتكلمين^(١) أن غاية التوحيد هو إثبات الصانع، ويفسرون

(١) يقول عضد الدين الإيجي: «المرصد الثالث في توحيده تعالى، وهو مقصد واحد، وهو أنه يمتنع وجود إلهين».

ويعرف القاضي عبد الجبار التوحيد في اصطلاح المتكلمين فيقول: «أما في اصطلاح المتكلمين؛ فهو: العلم بأن الله تعالى واحد، لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات، نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه، والإقرار به».

ويقول الرازي في تعريف التوحيد: «هو: عبارة عن الحكم بأن الشيء واحد، وعن العلم بأن الشيء واحد، يقال: وحدته إذا وصفته بالوحدانية».

وفي «التعريفات» للجرجاني: «التوحيد ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة».

وفي «شرح المقاصد» للتفتازاني: «حقيقة التوحيد: اعتقاد عدم الشريك في الألوهية، وخواصها، ولا نزاع لأهل الإسلام في أن تدبير العالم، وخلق الأجسام، واستحقاق العبادة، وقدم ما يقوم بنفسه كلها من الخواص».

فالواحد والآخر عند المتكلمين صفة سلبية ويريدون بها ثلاثة معان:

١ أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

٢ واحد في صفاته لا شبيه له.

٣ واحد في أفعاله لا شريك له.

والحاصل من تلك التعريفات أن التوحيد عند المتكلمين هو: صفة سلبية تقوم على العلم والإقرار والنفي المجرد، ولا يثبت لله منها شيء من الصفات أو الكمالات.

وانظر: «المواقف» (٣/ ٦٠)، «شرح الأصول الخمسة» (ص ١٢٨)، «المطالب العالية» (٣/ ٢٦٢)، «التعريفات» (ص ٥١)، «شرح المقاصد» (٤/ ٣٩).

وانظر أيضًا: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٢/ ٣٣٢) وما بعدها للعلامة

(الإله) بـ (القادر على الاختراع)؛ فإنهم يبنون على هذا الأصل الفاسد أنه لو استغاث المستغيثون ولاذ اللائذون بالأنبياء والصالحين، مع اعتقادهم بأن الله هو القادر المدبر والمتصرف فإن ذلك لا يكون شرًا، حيث إن تمام التوحيد - عندهم - هو توحيد الربوبية، وقد سبق أن هذا التوحيد ليس هو التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء والرسل ﷺ وليس هو التوحيد الذي يُنْجِي من الخلود في النار، فتوحيدهم الذي يقررونه قد أقرت به الأمم جمعاء إلا شرذمة، وسيأتيك بيان هذا في موضعه بإذن الله.



اليمني، و«شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٦٤ وما بعدها)، و«الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية» (ص ٣٤ - ٣٦) لآمال بنت عبد العزيز العمرو.

العبادة والعبودية -وصفاً وتعريفًا-

وتحقيق معنى العبادة والعبودية هو من كُبرى المسائل أيضًا، حيث إن غياب المفاهيم، وانحراف الأفهام عن المعاني الشرعية الصحيحة في هذا الباب هو الذي جعل كثيرًا من الناس يتخبطون في ظلمات الجهل وأودية الباطل، طائنين أنهم على بينة من الأمر، وجادة الطريق، فيدخلون في الدين ما ليس منه، ويُخرجون منه لُبّه وُصلبُه، ذامّين للتوحيد ذابّين عن الشرك^(١).

وأُسّ الإشكال عند المخالفين إنما هو راجع إلى نقص علمهم بدينهم، فهم يجهلون أن الدعاء والاستغثة -مثلًا- داخلان في مسمى العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله -تعالى-، وأن دعاء غير الله مما يدخل في مسمى الشرك، وهكذا، فليس الخلل راجعًا إلى أصل تسليمهم بوجوب أفراد الله بالعبادة، ولا إلى أصل إقرارهم بالتوحيد، ولا إلى أصل براءتهم من الشرك وأهله، وإنما الخلل راجع إلى شيء آخر وهو تحقيق ما يدخل في حقيقة العبادة والتوحيد، مما كان مختصًا بالله -تعالى-، وتحقيق ما يدخل في حقيقة الشرك^(٢).

وتحرير الكلام في مسألة العبودية والعبادة من أعظم المسائل فيما نحن فيه.

(١) يقول علوي الحداد وبُس ما قال : «وينبغي اليوم في هذا الوقت من الحوادث التي حدثت في الثلم في الدين باعتقاد العامة قول بدعي أن الاستغثة شرك، فالعالم المقتدى به ينبغي له أن يظهر الاستغثة ليُقتدى به». اهـ «مصباح الأنام» (ص ٦٠).

(٢) «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص ٢٦).

وبالرغم من الدلالات الواضحات والنصوص البيّنات التي لا اشتباه فيها في نفس الأمر. إلا أنّ من طوائف الأمة مَنْ ضلّت في مفهومها. وأضلت كثيراً من الخلق من ورائها. فكان الولوج في أبواب الشرك. والدخول في أنواع من الانحرافات نتيجةً حتميةً لازمةً لذلك الجهل. وذياك الضلال. حتى صارت صور الشرك الأكبر ليست محل سكوت أو اختلاف فحسب. بل وغدت من أنواع القُرب التي يُرجى بها الزلفى عند الله - جل وعلا -^(١).

وبياناً لأصل المسألة نقول: مدار أصل العبادة على معنى الذّل والخضوع والانقياد. إلا أنّ معنى العبادة أخصّ من تلك المعاني. فليس كل ذلّ وخضوع يكون عبادة حتى يبلغ العابد المنتهى والغاية فيهما؛ حيثُ يصح إطلاق اسم العبادة عليه بمعناها الكلي والشمولي.

وفي هذا يقول الراغب الأصفهاني: «العبودية: إظهار التذلل. والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل. ولا يستحقها إلا مَنْ له غاية الإفضال. وهو الله - تعالى -». ولهذا قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢).

وجاء في «لسان العرب»: «وأصل العبودية الخضوع والتذلل»^(٣).

ويقول الرازي: «وأصل العبودية: الخضوع والذل. والتعبيد التذليل. يقال: طريق مُعبّد»^(٤).

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/١٢٣).

(٢) «المفردات» (ص ٣٢٢).

(٣) «لسان العرب» (٦/٤٨).

(٤) «مختار الصحاح» (١٧٢).

وقد تُعرّف «العبادة» باعتبار الوصف القائم في العبد من الطاعات والمأمورات ظاهراً وباطناً.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله - تعالى - بغاية المحبة له»^(١).

ويقول الشيخ أبو الثناء الألويسي: «العبادة: هي أعلى مراتب الخضوع»^(٢).

وقد تُعرّف «العبادة» باعتبار ما يُتعبد به، وهذا بالنظر إلى ذات العبادة مجرداً عن تعلقها بالعبد، أو بفعل العبد لها.

ولعل أحسن التعاريف بهذا الاعتبار ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»^(٣).

وقد تُعرّف العبادة أيضاً باعتبار المأمور به شرعاً، وذلك بالنظر إلى مَنْ تُصَرَف له العبادة، وهو رب العزة - جلّ وعلا - دون ما سواه.

يقول الإمام ابن جرير الطبري مُعرِّفاً العبادة - بهذا الاعتبار -: «هي الخضوع لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة»^(٤).

والحاصل - مما سبق - أن تعريف العبادة - في اللغة وفي الشرع - مرده إلى معنى الخضوع والذل والانقياد، سواء كان هذا بالنظر إلى قيامها في شخص العابد،

(١) «العبودية» مع «شرحها» للراجحي (ص ١٧).

(٢) «روح المعاني» (١/ ٣٩).

(٣) «العبودية» مع «شرحها» (ص ٦) للراجحي.

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٤).

أو بالنظر إلى ذات العبادة مجردة عن محلها، أو بالنظر إلى المأمور به شرعاً^(١).

ثم إنَّ مَنْ فُسِّر «العبادة» بمطلق الذَّلِّ والخضوع فإنما ذلك باعتبار أصل المعنى، لا باعتبار التمام والكمال، إذ ليس من لسان العرب إطلاق اسم العبودية على كل تذلل وخضوع، وإلا صار عامة الناس عابدين لمن يتذللون ويخضعون له من أصحاب المال أو الجاه أو السلطان، مع التنبيه على أنَّ فيمن يتذلل لغيره نوعٌ عبوديةٌ لذلك الغير - كلٌّ بحسبه -.

واستعمال الشرع للفظ العبودية جاء إطلاقه على كل من سوى الله - تعالى - باعتبار أنه مريبوب مملوك له - سبحانه -.

كما وجاء إطلاقه على المملوك باعتبار خضوعه لسيده.

وسمى الشرع الحرص الشديد على الدنيا، وتعلق القلب بها، وخضوع القلب لها بما يحول بينه وبين كل حقٍّ، سماه الشرع «عبادة» كما في قول النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدَّرْهَمِ وَالْقُطَيْفَةِ وَالْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»^(٢).

إلا أن أصل إطلاق العبادة في الشرع منصرف إلى الحق الذي اختصَّ الله - تعالى - به والذي لا يجوز صرفه لغيره - سبحانه - وهو: كمال الذل والخضوع والانقياد له - جل وعلا -.

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/١٣٣).

(٢) «البخاري» كتاب الجهاد والسير باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم (٢٨٨٦) (٦/٩٩ «فتح الباري»).

فكل عبادة مصروفة لغير الله فهي وإن سميت : «عبادة» في الاستعمال اللغوي والشرعي إلا انها عبادة باطلة.

وكل عبادة مصروفة لله - جل وعلا - فهي عبادة صحيحة.

وهذا المعنى هو الذي خاطب به المرسلون ﷺ أقوامهم، ففهموه من عبارته الاولى، إذ ليس هو مصطلحاً جديداً تخفى عليهم معالمه^(١).

وعلى هذا؛ فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله مما ثبت في الشرع أنه عبادة؛ فقد عبَدَ ذلك الغير - سواءً اعتقد فيمن صُرفت له العبادة صفة من صفات الإله أو لم يعتقد، أو اعتقد فيه النفع والضرر استقلالاً، أو لم يعتقد -؛ فذاك الصرف عبادة، بصرف النظر عن أي قيد أو شرط.

وما سبق بيانه من تعريف للعبادة من كلام أهل العلم والإيمان دالٌّ على ما ذكرناه من غير أدنى لبس أو خفاء.

وأما المخالفون لأهل السنة فلمهم في تعريف العبادة سبيل آخر غير سبيل المؤمنين؛ حيث يشترطون في العبادة حتى تكون عبادة شرطين:

١ - اعتقاد الألوهية في المعبود واستحقاقه العبادة.

٢ - اعتقاد التأثير المستقل لذلك المعبود^(٢).

وبناءً على هذا التقييد الفاسد؛ فإنهم يقررون: أنه لا يعتد أحدٌ من المسلمين

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٢٤ - ١٢٧) بتصرف وزيادات .

(٢) «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، (ص ٣١ - ٣٢)، وانظر الرد عليه في: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة»، (١/ ١٥٤).

ألوهية غير الله، ولا تأثير أحد سوى الله، فانتفى الشرك عن الأمة بهذا، والحمد لله رب العالمين!!!

ولهذا يقولون : إن مسمى العبادة لا يدخل في شيء من التوسل والاستغثة وغيرهما، بل لا يشبهه بالعبادة أصلاً، فإن كل ما يدل على التعظيم لا يكون من العبادة، إلا إذا اقترن به اعتقاد الربوبية لذلك المَعظم، أو صفة من صفاتها الخاصة بها^(١).

يقول أحمد زيني دحلان - في تعريف الدعاء الذي يكون عبادة - : «وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه»^(٢).

ومخالفو أهل السنة يخرجون بهذا كثيراً من الأعمال الشركية عن كونها شركاً، كدعاء الأموات والاستغثة بهم، وصرف أنواع العبادة لهم، على اعتبار أن أصحابها ما أرادوا إلا التوسل والاستشفاع والتعظيم دون أن يقوم في قلوبهم اعتقاد استقلال المدعوين بالربوبية واستحقاق العبادة.

وعلى هذا؛ فلا يكاد يوجد عبادة لغير الله واقعة في الأرض إذ كان المشركون لا يرون في معبوداتهم هذا الاستقلال، بل كانت تليتهم المشهورة: «ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»^(٣).

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/١٥٥)، وانظر للفائدة : «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/٢٨٩ - ٢٩٦).

(٢) «الدرر السنية في الرد على الوهابية» (ص ٣١) .

(٣) «مسلم»، كتاب الحج باب التلبية وصفتها ووقتها، برقم (٢٨٠٧) من حديث ابن عباس (٨/٣٢٩ «شرح النووي»).

وبمثل هذه الشبهات الواهيات صارت الجاهلية الأولى صورةً واقعيةً وحقيقةً محكيةً في أنحاء من بلاد المسلمين^(١).

ويرحم الله الشيخ العلامة شمس الدين الأفغاني حينما قال : «فالمشركون الأولون - على هذا - ليسوا بمشركين، وليسوا عابدين لغير الله - تعالى -؛ لأنهم إنما عبدوا الصالحين على أساس الشفاعة، لا على أساس الربوبية والاستقلال بالنفع والضرر، ونفوذ المشيئة».

فلو كان تعريف القبورية للعبادة صحيحًا؛ لَزِمَ منه كون المشركين غير مشركين، وغير عابدين لغير الله؛ لكن التالي باطل، فالمُقَدَّمُ مثله^(٢).

أما وجه بطلان التالي فظاهر؛ لأن القبورية أيضًا يُسَلَّمون أن المشركين السابقين كانوا مشركين بلا ريب، وأنهم عِبَادُ غيرِ الله بلا امتراء؛ وإذا ثبت بطلان التالي - حتى بشهادة الخصوم واعترافهم - ظهر بطلان المُقَدَّم؛ وهو أن تعريف

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٥٣ - ١٦٠)، وانظر أمثلة على هذا في: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (٢/ ٧٥٩ وما بعدها) و(١٠٦٧ وما بعدها) و(١٠٨٥ - ١٠٩٢).

(٢) أي : يلزم من تعريف المخالفين لمسمى (العبادة) نفي الشرك عن المشركين، وذلك أن القبوريين ومُجَوِّزِي الاستغثة يُتَيَدُّون وقوع الشرك وتحققه باعتقاد الإلهية في المدعو، أو باعتقاد ملِكِ النفع والضرر استقلالًا! وهذه القيود والشروط غير موجودة أصلاً في قلوب وعقيدة المشركين كما سيأتي بيانه، وعلى هذا فيلزمهم إحدى قضيتين :

١ فإما أن ينفوا الشرك عن المشركين الأولين، الذين نصَّ القرآنُ صراحةً على شركهم، وهذه نتيجة باطلة، وكذلك مقدمتها مثلها في البطلان.

٢ وإما أن يلتزموا القول بشركهم، فيلزمهم بالتالي نقض تعريفهم للشرك، وهو المطلوب.

القبورية للعبادة تعريف باطل مزيف فاسد غير جامع لأفراده؛ بل غير صادق على شيء من أفراده.

ثم يقال : لو كان المشركون الأولون مشركين بالله وعابدين لغير الله؛ لزم منه أن يكون تعريف القبورية للعبادة باطلاً مزيفاً غير جامع لأفرادها؛ بل غير صادق على شيء من العبادات.

لكن المقدم حق؛ لأن المشركين السابقين مشركون حتى باعتراف القبورية، وعابدون لغير الله حتى بشهادة القبورية؛ فالتالي مثله؛ وهو بطلان تعريف القبورية، وكونه غير جامع لأفراده؛ بل كونه غير صادق على شيء من العبادات.

لأن القبورية يشترطون في تحقيق العبادة شروطاً لم تتوفر - أصلاً - في عبادة المشركين السابقين لألهتهم، مع كونهم مشركين وعابدين لغير الله - حتى باعترافهم وشهادتهم -^(١). اهـ.



(١) «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/ ٣٠٠ - ٣٠١).

الشرك الأكبر - حقيقته ومعناه -

يقول الشيخ مبارك الميلي -رَحِمَهُ اللهُ -: «بيان العلماء لمسائل الشرك اداء للأمانة، وقيام بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم رجاء لصلاح حال المسلمين، وأن لا يكونوا حُجَّةً على هذا الدين، ولا سُبَّةً بأفواه المُتَمَدِّنين، وهو غرض الذين ينهون عن السوء حين قالوا: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] مِمَّنْ حكى الله عنهم مِنْ وُعَاظِ بني إسرائيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»^(١).

وها هو -رَحِمَهُ اللهُ- ييث شكواه - وهو في المغرب البعيد - من قلة اهتمام العلماء بشأن الشرك، وبيان خطورته، مع اعتناء كثير منهم بالفروع الفقهية التي ينذر وقوعها، أو حتى عدم وقوعها.

فيقول: «...وستعجب معي من قلة اهتمام أكثر علمائنا بذلك، كأن لا حاجة بالمسلمين إليه؛ تجد في كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة، أو لا توجد عادة، ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول، فيُحَدِّثُونَ الشرك، ويُفَصِّلُونَ أنواعه، ويُعَدِّدُونَ مظاهره حتى يرسخ في نفوس العامة الحذر منه، والابتعاد من وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله في جزئية من ذلك»^(٢). اهـ.

فمعرفة الشرك وطرائقه ووسائله من ضرورات كلمة التوحيد؛ حيث إنها

(١) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٦١) للشيخ مبارك الميلي.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٤٦ ٤٧).

متضمنة البراءة منه، فالوقوع في شيء من الشرك ينقص التوحيد^(١) أو يبطله.

ولذلك لما خفي معنى الشرك على كثير من الناس صاروا يُقرّرون الشرك، وينقصون التوحيد، ويُقرّرون عنه، ومن هنا تظهر أهمية الكلام فيه.

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقرّه، ودعا إليه وصوّبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شر منه، أو دونه، فينقُص بذلك عُرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف مُنكراً، والمُنكرُ معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويُكفّر الرّجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويُبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلْبٌ حيٌّ يرى ذلك عياناً، والله المستعان»^(٢). اهـ.

ومن جميل ما حكاه الشيخ مبارك الميلي - أيضاً - وهو يصف لنا واقع الشرك بين الناس، مبيّناً خطورة إهمال الكلام فيه، وفي دقائقه، قوله - رحمه الله - : «نتج عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصي معنى، وإن كان أجلاها حكماً، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم، يتبرؤون منه، ويغضبون كل الغضب إن نُسبوا إليه، ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون، ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله وأسمائه بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله، ثم يدافع عنهم

(١) وهذا إذا كان الشرك شركاً أصغر، وأما الشرك الأكبر فهو مُبطلٌ ومناقضٌ لأصل التوحيد من كل وجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤).

ويحشرهم في زمرة أهل السنة، حتى ليخيل إليك أن العامي الواقع في حمأة الشرك جهلاً واغتراراً أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق^(١).

وبياناً للمقصود نقول: إن أحسن وأوضح تعريف للحقائق والمسميات الشرعية هو ما كان من قول صاحب الرسالة ﷺ، فقد سُئل -عليه الصلاة والسلام-: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

والنَّدُّ هو: العِدْلُ والمِثْلُ. وهو الذي ينازع غيره فيما كان من خصائصه، وجوهره، لكن المِثْلُ يقال في أي مشاركة كانت، وأما (النَّدُّ) فهو الذي ينازع غيره في خصائصه، فكل نَدٌّ مِثْلٌ وليس كل مِثْلٍ نَدًّا^(٢).

فالله -تعالى- وحده الخالق وما سواه مخلوق، وهو وحده المالك وما سواه مملوك، وهو وحده المدبِّر وما سواه مدبَّر له، وهو وحده المعبود وما سواه عابد، فهو وحده المستحق للعبادة.

فَمَنْ صَرَفَ شَيْئاً مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ -تعالى- لغيره فقد جعله نداً لله -تعالى-، وذلك هو الشرك بالله^(٣).

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في قوله -جل وعلا-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

(١) «الشرك ومظاهره» (ص ٤٧).

(٢) انظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص ٤٨٩) للراغب، و«تذكرة الأريب» (١/ ٥٢) لابن الجوزي، و«تفسير الطبري» (١/ ١٨٧).

(٣) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

قال ابن عباس : أي: أشباهاً^(١).

وقال مجاهد وقتادة : عدلاء^(٢).

فمن صرف شيئاً من خصائص الرب لغيره من المخلوقين، فقد جعلهم عدلاء وأشباهاً له - سبحانه -.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - : «فَمَنْ عَدَلَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ - سبحانه وتعالى - فهو مشرك»^(٣).

ويقول أيضاً : «وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحدٌ بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك»^(٤). اهـ.

ويقول الإمام الشوكاني - رَحِمَهُ اللهُ - : «بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختص به - سبحانه -»^(٥). اهـ.

ويقول العلامة السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - : «حقيقة الشرك بالله أن يُعبدَ المخلوقُ كما يُعبدُ الله، أو يُعظَّم المخلوقُ كما يُعظَّم الله، أو يُصَرَفَ له نوعٌ من خصائص الربوبية والإلهية»^(٦). اهـ.

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٧).

(٣) «الفتاوى» (١٣/ ١٩).

(٤) «الاستقامة» (١/ ٣٤٤).

(٥) «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» (ص ٧٠).

(٦) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص ٣٦٧).

والحاصل أن حقيقة الشرك ظاهرة بيّنة في الكتاب والسنة، ومدارها على مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائصه - سبحانه -، سواء كانت تلك المساواة في خصائص الربوبية، أو في الأسماء والصفات، أو كان ذلك في استحقاقه للعبادة وحده - سبحانه - لا شريك له^(١). اهـ.

وأما المخالفون لأهل السنة فيقولون: «الشرك أن يعتقد الإنسان بالوهية غير الله، أو أن هناك مؤثراً مدبراً متصرفاً سوى الله، فالذي يقدر في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله، أو استحقاق التأثير لغير الله، أما مجرد الدعاء والاستغثة وطلب الحوائج من معبوداتهم فليست هي - عندهم - من الشرك أو موجباته في شيء^(٢).

فإذا بُيِّنَ لهم الأمر وتُليّت عليهم الآيات البينات، والنصوص الواضحات في بيان الشرك وحكم أهله، قالوا: تلك آيات نزلت في المشركين الأولين، حيث كانوا يعتقدون في آلهتهم النفع والضرر استقلالاً، وأما ما يفعله الناس اليوم من طلب ودعاء واستغثة ونداء فليس فيه رائحة الشرك حتى، فشرك الأمم السابقة - عندهم - كان في اعتقادهم ربوبية غير الله تصرفاً وملكاً وتدبيراً، وليس من جهة جعلهم بينهم وبين الله وسائط يرجون من خلالها الزلفى عند الله^(٣).

وهذا أوان الكلام عن حقيقة شرك المشركين الأولين، فذلك فرقان بين الحق والباطلان.

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٤٧ - ٢٤٨).

(٢) انظر «الدرر السنية» (ص ٣١ - ٣١) لأحمد زيني دحلان.

(٣) انظر نماذج من كلام المخالفين في كتاب: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٦٨).

حقيقة شرك الأولين، وبيان أن شركهم واقع من جهة صرف الدعاء والعبادة لغير الله، ومن جهة جعلهم بينهم وبين الله وسائط وشفعاء

وينتظم الكلام هنا في مسائل :

□ أولها : إقرار المشركين بالله خالقًا ورازقًا ومدبرًا ومتصرفًا :

كانت العرب في جاهليتها تعتقد بوجود الله ﷻ وربوبيته، وأنه الذي يرزق من السماء والأرض والذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر كله، له الأرض وما فيها، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه خلق السماوات والأرض وسَخَّرَ الشمس والقمر، يسط الرزق لمن يشاء ويقدر له، ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض، خلق السماوات والأرض وهو العزيز العليم^(١).

يقول العلامة أحمد بن علي المقرئ - رَحِمَهُ اللهُ - :

«ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه - سبحانه - وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله - تعالى - عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

(١) انظر «مجموع رسائل العقيدة» (١٥٧/٦ - ١٥٨) للعلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني،

ضمن مجموع آثاره رحمه الله تعالى .

[البقرة: ١٦٥]، فلما سَوَّوْا غيره به في هذا التَّوْحِيد كانوا مشركين^(١).

□ ثانيها: بيان هذا الأصل - تنصيًّا واستدلالًا -:

فمن ظن أن المشركين كانوا يجحدون الصانع، أو كانوا يعتقدون النفع والضرر في آلهتهم وأصنامهم استقلالًا، أو لا يدعون الله ولا يعبدونه فقد قال قولًا معلوم البطلان من دين الإسلام، فدلائل هذا الأصل وشواهد في القرآن كثيرة لا تحصى، حيث أخبر الله - تعالى - عن حالهم، وبيّن مرادهم فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وهذا إخبارٌ من الله ظاهرٌ في أن مراد المشركين وغايتهم هو التقرب إلى الله عن طريق الوسطاء والشفعاء، ومع ذلك سمى الله عبادتهم ومنها الدعاء باسم «العبادة» فتأمل.

ومثله ما يفعله بعض جهلة المسلمين اليوم، فتراهم يدعون ويستغيثون وينذرون ويذبحون للأولياء، فإذا نصحهم الناصح وأنكر عليهم المنكر قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(١) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٤٠) للمقرئزي، وانظر: «الدر النضيد» (ص ٦٨) للإمام الشوكاني.

وها هو الرازي يشير إلى وجود هذا التشابه الكبير بين الفريقين، من مشركي الجاهلية، ومشركي أهل هذا الزمان، حيث يقول في تفسير آية يونس السابقة:

«ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله - تعالى - ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله^(١)».

فليس شرك المشركين كائنًا من جهة إنكار وجود الصانع، فمن ظن هذا فهو أحد الجاهلين، إنما صار المشركون مشركين بجعلهم بينهم وبين الله وسائط وشفعاء، وآيات القرآن ظاهرة صريحة في بيان هذا المعنى، ومنها قوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصْرِفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وقوله - سبحانه -: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنْتُمْ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

والآيات والشواهد في هذا المعنى كثيرة.

(١) «مفاتيح الغيب» (١٨ / ٢١٠).

وقد روى ابن جرير في «تفسيره» قال:

«حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة، أنه قال في قوله - تعالى -:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: قال: أي: تعلمون أن الله خلقكم وخلق
السموات والأرض، ثم تجعلون له أندادًا»^(١).

و بسنده قال:

«حدثنا هناد، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن عكرمة، وذلك في
تفسير قوله - تعالى -:
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]:
قال: تسألهم من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك
إيمانهم بالله وهم يعبدون غيره»^(٢).

وقال:

«حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة في قوله - تعالى -:
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: قال: هذا أنك لست تلقى أحدا منهم
إلا أنباك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته»^(٣).

وروى أيضًا بسنده قال:

«حدثني يونس، قال: أخبرنا وهب قال: سمعت ابن أبي زديقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٩٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣/ ٩٤).

أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١﴾ : قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه وإن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به... فليس أحد يشرك به، ألا ترى كيف كانت العرب تليبي. تقول: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون ذلك»^(١). اهـ.

قال العلامة اليماني - رَحِمَهُ اللهُ - : «وحاصل اعتقاد المشركين في أصنامهم أنها تماثيل تُذَكَّرُ بالملائكة، وقد يكون فيها تمثال أو تذكُّار لله - عز وجل -، وأنها في نفسها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي ذريعة إلى عبادة من جُعِلَتْ تماثلاً أو تذكَّاراً له»^(٢).

وفي تقرير المعنى نفسه، يقول الشهرستاني - رَحِمَهُ اللهُ - : «وبالجملة: وضع الأصنام حيث ما قدره وإنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهياته نائباً منابه وقائماً مقامه، وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت جسماً بيده ويصور صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل، وخالق الكل، إذ كان وجوده مسبوقاً بوجوده صانعه وشكله يحدث بصنعه ناحته»^(٣). اهـ.

وبالجملة فإنَّ مَنْ له أدنى نَهْمَةٍ في العلم، والتفات إلى ما جاءت به الرسل، يعلم علماً ضرورياً أن المشركين من كل أمة، وفي كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم.

(١) (٩٥/١٣). وانظر للفائدة : «مجموع رسائل العقيدة» (٦/١٦٠ ١٦١) للعلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني ضمن مجموع آثاره، و«القول السديد» (ص ٥٨) للشيخ عبد الرزاق البدر.

(٢) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٥١١/٢).

(٣) «الملل والنحل» (٦١١/٢).

وآلهم التي عبدها مع الله إلا التَّسْبُّب، والتَّوَسُّل، والتَّشْفَع، ليس إلا، ولم يدعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله، ولا قال به أحد منهم سوى فرعون، والذي حاج إبراهيم في ربِّه، وقد قال - تعالى - فيه: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَِا وَاسْتَفْتِنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ^(١).

□ ثالثها : الاستغثة بين المشروع والممنوع:

الاستغثة: هي طلب الغوث وإزالة الشدة، كالاستنصار: طلب النصرة، ولا يكون ذلك إلا عند الشدائد ^(٢).

والاستغثة نوع من أنواع الدعاء، فكل استغثة دعاء، وليس كل دعاء استغثة وذلك لاختصاص الاستغثة بالشدائد.

ولما كان الدعاء عبادة - كما سيأتي - كانت الاستغثة نوعاً من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله - جل وعلا - .

والمقصود هنا بيان أن الاستغثة نوعان، استغثة جائزة مباحة، واستغثة شركية ممنوعة.

أما الجائز المباح منها فكأن يستغيث المخلوق بمخلوق آخر حي حاضر قادر

(١) انظر: «تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ٤٢ - ٤٣).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٦/ ٦٩٣)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٢٤) مادة غوث.

وللفائدة: انظر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة» ضمن مجلة «الدراسات العقدية»

(١/ ١٧)، و«الإبداع في مضار الابتداع» (ص ٢٠٧) للشيخ علي محفوظ، و«الدر النضيد»

(ص ٩ - ١٣) للشوكاني رحم الله الجميع .

على الإغاثة حقيقة أو حكماً^(١)، فما كان بإمكان المخلوق الحي الحاضر القادر الإغاثة به فلا بأس أن يُستغاث به فيه، كمن يطلب من غيره قضاء حاجة، أو إنقاذ غريق، أو سداد دين، أو نحو ذلك، ومن هذا قول الله - تعالى - عن موسى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وأما الممنوع منها: فكان يستغيث المستغيث بالميت، أو بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، كالنصر على الأعداء، أو الرزق، أو الهداية، أو حصول الشفاء، أو نزول المطر ونحوها.

يقول العلامة أحمد بن حجر آل بوطامي - الشافعي - رحمه الله - في معرض كلامه على أنواع الاستغاثة - قال: «أو يستغيث بهم في الشدائد، كأن يقول: يا رسول الله أنقذني، يا رسول الله فرّج عني هذا الكرب، المدد يا عبد القادر يا جيلاني، أو يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يطلب من المخلوق شفاعته عند الله، أو مغفرة للذنوب، أو تحصيلاً للجنة أو نجاة من النار، أو أن يرزقه ولداً، أو أن يُطْلِعَهُ على الغيب، أو نحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها، فإنه يكون بكل فعل من هذه الأفعال مشركاً بالله العظيم شركاً أكبر، لا يغفر الله له إلا أن يتوب، لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ

(١) أي: في حكم القادر، مما يقدر عليه جمهور الخلق في العادة وهذا كمن يستغيث لإنقاذ غريق بمن يُعلم منه أنه لا يحسن السباحة ولا يقدر عليها، فهذه الاستغاثة إن وقعت من المستغيث من غير اعتقاد بالمستغاث به فهي جائزة مباحة.

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٨].

أما ما كان في إمكان المخلوق الحي، فلا بأس بأن يستغيث به، مثل أن يطلب منه أن يعينه في قضاء حاجة، أو إنقاذ من غرق أو حريق أو ما سوى ذلك»^(١).

وكل استدلالات المخالفين على جواز الاستغثة بالأولياء والصالحين منحصرة في أنواع ثلاثة:

أولاً: ما كان دليلاً على جواز الاستغثة بالحي الحاضر القادر، وهذا لا حجة فيه، فيما نحن فيه.

ثانياً: الضعيف والساقط من الأحاديث والقصص والمرويات، فهذا لا حجة فيه أيضاً، فلا تثبت العقائد أصلاً بهكذا استدلالات، فضلاً عن قبول معارضتها للصريح والصحيح من الآيات والأحاديث.

ثالثاً: ما كان خارجاً عن محل البحث لعدم دلالة - أو ضعفها - على المطلوب، ومن هذا خلطهم بين مفهومَي التَّوَسُّل والاستغثة، واستدلّاهم بأدلة التَّوَسُّل المشروع على جواز الاستغثة الممنوعة^(٢).

□ رابعها : الاستغثة بالأنبياء والأولياء والصالحين، شركٌ مُهين ومُحاذةٌ

لتوحيد رب العالمين:

قلنا إن الاستغثة نوعٌ من أنواع الدعاء، وقد دلّ القرآن والسنة والإجماع المعتبر على تحريم دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والتصريح بأن ذلك من

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران»، (ص ٤٣ - ٤٥).

(٢) «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة»، ضمن مجلة «الدراسات العقدية»، (١/ ٢١ - ٢٢).

الشرك الذي لا يغفره الله، دلّ على ذلك أدلة، منها :

* قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

* وقوله - جل وعلا - : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

* وقوله - سبحانه - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ
نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَوِّفُهُمْ قَالُوا بَلْ أَتَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا اضْلُوعًا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

* وأخبر الله - تعالى - أن المشركين يدعون معه غيره في حال الرخاء،
ويخلصون له الدعاء في حال الشدة فقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

* ويقول - جلّ في علاه - : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ. ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ
عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

* ويقول - سبحانه - : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى
الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وعليه؛ فقد نص الأئمة وتواتر النقل عن السلف على ما دل عليه ظاهر القرآن
من عدم جواز الاستغثة بالأموات، وأن ذلك شرك أكبر يخرج العبد من دائرة

الإسلام^(١). وهذا الأصل متقرر في الشريعة، وهو مما لا يُعلم فيه خلاف بين السلف، خلافاً لِشِدَازٍ من المتأخرين، وسيأتيك البيان بإذن رب العالمين.

□ خامسها : ليس عند مجوزي الاستغثة خبر مليح ولا نظر صحيح :

ثم إنَّ مَنْ جَوَّز الاستغثة بالأموال إنما عمدته كلام بعض المتأخرين، كما أن من جَوَّز التوسل بالجاء والذوات إنما حجته واتكاؤه أيضاً على المرجوح من كلام بعض أهل العلم كالإمام أحمد^(٢) وغيره، وليس عمدته وحجته في ذلك كلام الله ورسوله ولا كلام السلف الأول.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - : «ومن ذهب إلى الاستغثة بالموتى فقد شرع له ديناً لم يؤذن له به، وليس معه في الاستغثة بهم سوى فعل بعض المتأخرين وكلامهم، ممن ليس هو معدود من أهل الإجماع والاختلاف؛ فليس معه تقليد المقلدين، ولا اجتهاد المجتهدين، ومن ابتدع بدعة في الدين بدون اجتهاد أهل الاجتهاد أو التقليد لأهل الاجتهاد كان من أهل الضلال والغي، لا من أهل الهدى والرشاد.

وأما السؤال بهم؛ فغاية ما معه فيه قول بعض العلماء مع منازعة غيره له فيه وقد قال - تعالى - : ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

(١) قال شيخنا: ضمن ضوابط وشروط دقيقة في حكم تنزيل هذا الحكم على المعين.

(٢) انظر «الإنصاف» (٢/٤٥٦) لعلاء الدين المرداوي، وهذا الجواز من الإمام أحمد مخصوص بالتوسل بالنبي دون ما سواه. قال شيخنا: وهو مرجوح.

وقد نصّر غير واحد من العلماء على أنه لا يجوز السؤال لله بالأنبياء والصالحين، فكيف بالاستغثة بهم؟!

مع أن الاستغثة بالميت والغائب مما لا نعلم بين أئمة المسلمين نزاع في أن ذلك من أعظم المنكرات ومن كان عالماً بآثار السلف علم أن أحداً منهم لم يفعل هذا وإنما كانوا يستشفعون ويتوسلون بهم بمعنى أنهم يسألون الله لهم مع سؤالهم هم الله فيدعو الشافع والمشفوع له كما قال عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا^(١). اهـ.

ويقول - رحمه الله -: «واتفق أيضاً أئمة المسلمين على أنه لا يشرع لأحد أن يدعو ميتاً ولا غائباً، فلا يدعوه ولا يسأله حاجة، ولا يقول: اغفر لي ذنبي، أو: انصر ديني، أو انصرني على عدوي، أو غير ذلك من المسائل، ولا يشتكي إليه، ولا يستجير به، كما يفعله النصاري بمن يُصَوِّرون التماثيل على صورته، ويقولون: مقصودنا دعاء أصحاب هذه التماثيل والاستشفاع بهم، فمثل هذا ليس مشروعاً - ولا واجباً ولا مستحباً - في دين المسلمين، ومن فعل ذلك معتقداً أنه يستحب فهو مبتدع ضال»^(٢). اهـ.

□ سادسها : سؤال الموتى من دون الله هو أعظم الظلم والعدوان:

لذلك: كان سؤال غير الله - فيما لا يقدر عليه إلا الله - هو أعظم العدوان على

(١) «تلخيص كتاب الاستغثة» (ص ٣٨)، وأثر عمر رضي الله عنه رواه البخاري في كتاب الجمعة باب

دعاء النبي: «اجعلها عليهم سني كسني يوسف»، برقم (١٠١٠) (٢/ ٦٣٧ «فتح الباري»).

(٢) «جامع المسائل» (٥/ ١٠٩) جمع عزيز شمس.

خالص حق الرب -سبحانه-، وأشدّه انتهاكًا لحقيقة التوحيد وأصله .

يقول ابن القيم -رحمته- في «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦) في معرض كلامه عن أنواع الشرك: «ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغثة بهم، والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عما استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده كما تقدم، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزل من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة^(١). فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعبَدُ، وسَمَوْا قصدها حجًا، واتخذوا عنده الوقفة وحلق الرأس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التَّنْقُصِ للأموات، وهم قد تَنَقَّصُوا الخالق بالشرك، وأولياءه

(١) وفي الباب أحاديث، منها ما رواه الإمام مسلم في «صحيحه» وغيره في كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول المقابر والدعاء لأهلها، برقم (٢٢٥٧) (٧/ ٤٨ «شرح النووي»). من حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر، فكان قائلهم يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون». أسأل الله لنا ولكم العافية».

المُؤَحِّدِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. بِذَمِّهِمْ وَعِيْبِهِمْ وَمَعَادَاتِهِمْ. وَتَنَقَّصُوا مِنْ أَشْرَكُوا بِهِ غَايَةَ التَّنْقِصِ. إِذْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ رَاضُونَ مِنْهُمْ بِهَذَا. وَأَنَّهُمْ أَمْرُوهُمْ بِهِ. وَأَنَّهُمْ يُوَالُونَهُمْ عَلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَعْدَاءُ الرِّسْلِ وَالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. وَمَا أَكْثَرَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ. وَلِلَّهِ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وما نجا من شَرِّكَ هَذَا الشَّرِّكَ الْأَكْبَرِ إِلَّا مَنْ جَرَّدَ تَوْحِيدَ اللَّهِ. وَعَادَى الْمَشْرِكِينَ فِي اللَّهِ. وَتَقَرَّبَ بِمَقْتَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ. وَاتَّخَذَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَلِيَّهُ وَإِلَهَهُ وَمَعْبُودَهُ. فَجَرَّدَ حُبَّهُ لِلَّهِ. وَخُوفَهُ لِلَّهِ. وَرَجَاءَهُ لِلَّهِ. وَذُلَّهُ لِلَّهِ. وَتَوَكَّلَهُ عَلَى اللَّهِ. وَاسْتَعَانَتَهُ بِاللَّهِ. وَالتَّجَاهَ إِلَى اللَّهِ. وَاسْتَغَاثَتَهُ بِاللَّهِ. وَأَخْلَصَ قَصْدَهُ لِلَّهِ. مُتَبَعًا لِأَمْرِهِ. مُتَطَلِّبًا لِمَرْضَاتِهِ. إِذَا سَأَلَ سَأَلَ اللَّهَ. وَإِذَا اسْتَعَانَ اسْتَعَانَ بِاللَّهِ. وَإِذَا عَمِلَ عَمِلَ لِلَّهِ. فَهُوَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ وَمَعَ اللَّهِ. اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله. فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ: ﴿اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾»^(١). اهـ.

ويقول أبو الوفا ابن عقيل الحنبلي - رَحِمَهُ اللَّهُ - : «لما صعبت التكاليف على الجهال والطَّغَامِ: عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم. فسهلت عليهم. إِذْ لَمْ يَدْخُلُوا بِهَا تَحْتَ أَمْرِ غَيْرِهِمْ. قَالَ: وَهُمْ عِنْدِي كَفَّارُ بِهَذِهِ الْأَوَاضَاعِ. مِثْلُ: تَعْظِيمِ الْقُبُورِ وَإِكْرَامِهَا بِمَا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ مِنْ إِيقَادِ النِّيرانِ. وَتَقْبِيلِهَا.

(١) «تلخيص كتاب الاستغاة» (ص ٩٦).

وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: (يا مولاي! افعل بي كذا وكذا)، وأخذ تربتها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعزى^(١)، اهـ.

ويقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - في كتابه «الدر النضيد»: «اعلم أن الرزية كل الرزية، والبلية كل البلية؛ أمر غير ما ذكرنا - من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة -، وذلك ما صار يعتقد كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء، من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله - جل جلاله -، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله - عز وجل -، حتى نطق ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة استقلالًا، ويصرخون بأسمائهم، ويُعظِّمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعًا زائدًا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذا لم يكن شركًا فلا ندري ما هو الشرك! وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفر»^(٢)، اهـ.

ويقول الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني - رحمه الله -: «فهذه البدعة وهي الاستغثة بالأموات وإنزال الحاجات بهم والتوسل إثمًا هو بقية من عبادة الأصنام؛ فإن الجاهلية كانوا يستغيثون بهم ويطلبون الحاجات منهم، وكلُّ بدعة ضلالة، كما ثبت في الأحاديث^(٣)، وأيُّ ضلالةٍ أعظم من عبدٍ يُنزل حاجاته بالأموات ويعرض

(١) نقله عنه تلميذه ابن الجوزي في «تليس إبليس» (ص ٥٥٤، ٥٥٣) «المنتقى النفيس»، ونقله

ابن القيم كما في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٤ - ٣٦٥) تحقيق: الشيخ علي الحلبي.

(٢) «الدر النضيد» (ص ٢٨).

(٣) انظر: «ارواء الغليل» (٣/ ٧٣).

عن باري البريات.

وقد ثبت أنه ﷺ بايعه جماعة من الصحابة على أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان أحدهم إذا سقط سوطه وهو على راحلته لم يسأل من يناوله، بل ينزل بنفسه^(١)، كل هذا لتفرد الله بالسؤال وطلب الحاجات^(٢). اهـ.



(١) ومن ذلك ما صح عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ يَتَقَبَّلْ لِي بِوَاحِدَةٍ أَتَقَبَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» قُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا»، قَالَ: فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِيهِ، حَتَّى يَنْزِلَ فَيَأْخُذَهُ. رواه أحمد (٢٧٧/٥) وابن ماجه في «سُنَنِهِ»، كتاب الزكاة باب كراهية المسألة، رقم (١٨٦٤) (١١٤/٢) «صحيح ابن ماجه»، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، برقم (٣٦٠٠).

(٢) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف» (ص ١٠٧).

قاعدة نافعة

□ شرائع الدين وحقائق التوحيد، قد وقع بيانها على وجه الكمال والتمام، وعدم نقل ما تتوافر الهمم والدواعي على نقله مع انتفاء المانع دليل على العدم:

ومن الأصول الكلية المقررة -مما لها تعلُّق أصيل في هذا الباب- أن شرائع الدين وحقائق التوحيد قد وقع بيانها في موارد الشريعة على أكمل الوجوه وأحسنها وأبينها.

ولو كانت الاستغثة بالانبياء والأولياء والأموات من الجائزات أو المستحبات في الدين، لوقع بيان ذلك في الشريعة، ولتواتر نقله عن السلف، ولأرشد رسول الله ﷺ أمته إليه، ولدلهم عليه، مُبينًا ذلك أحسن بيان، فهو خير من يَبَيِّنَ ونَصَحَ وعَلَّمَ.

«فإنه ﷺ قد عَلَّمَ أمته كل خير ونهاهم عن كل شر^(١)، حيث عَلَّمَهُم أدق الأشياء، فعلمهم صلاة الاستخارة، وآداب اللباس والاستنجاء، وعلمهم أذكار الصباح والمساء والدعوات عند العوارض من الهم والغم والأخواف؛ بل قال لهم:

(١) كما في «صحيح مسلم»، كتاب الإمارة باب وجوب بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، برقم (٤٧٥٣) (١٢ / ٤٣٦ «شرح النووي») عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «... إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...» الحديث .

«من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبتة بي»^(١). وعلمهم التأسية عند المصائب، ولم يأت عنه حرفٌ أنه قال: من نزل به أمر فليستغث بي»^(٢).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً^(٣).

«فهل سمعتم - معاشر العقلاء - ان أحداً في زمانه ﷺ أو ممن بعده في القرون الثلاثة المشهود لأهلها بالنجاة والصدق. وهم أعلم منا بهذه المطالب، وأحرص على نيل مثل تيك الرغائب - استغاث بمن يزيل كربته التي لا يقدر على إزالتها إلا الله - سبحانه -، أم كانوا يقتصرون الاستغاث على مالك الأمور ولم يعبدوا إلا إياه.

ولقد جرت عليهم أمور مهمة وشدائد مدلهمة في حياته ﷺ وبعد وفاته. فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بسيد المرسلين ﷺ! أو قالوا: إنا مستغيثون بك يا رسول الله! أم بلغت أنهم لاذوا بقبره الشريف، وهو سيد القبور، حين ضاقت منهم الصدور! كلا! لا يمكن لهم ذلك، وإن الذي كان بعكس ما هنالك، فلقد أثنى الله - تعالى - عليهم ورضي عنهم، فقال عز من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣٨٦/٢)، والدارمي في «السنن» (برقم ٨٥ و ٨٦) مرسلاً، وهو في «الصحيحة» برقم (١١٠٦).

(٢) انظر: «الانصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطف» للصنعاني (ص ١٠٨).

(٣) «المسند» (١٥٣/٥)، ورواه ابن حبان في «صحيحه»، كما في «موارد الظمآن» (برقم ٧١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الموارد» (١/١١٩).

فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴿[الأنفال: ٩]﴾ مِينًا لَنَا - سبحانه - أن هذه الاستغثة هي أخص الدعاء، وأجلى أحوال الالتجاء^(١).

وفي نفس المعنى يقول الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني - رَحِمَهُ اللهُ - : «فلم يُعَلِّمْ أَنَّهُ - صلى الله عليه وآله وسلم - استغاث برسولٍ مِنْ أولي العزم ولا غيرهم عند الشدائد التي لاقاها؛ بل كان أعظم ما لاقاه منها يوم الطائف، فكان دعاؤه الدعاء المعروف^(٢) واللَّجَأَ إِلَى اللهِ - تعالى -».

وكذلك أصحابه من بعده لا يُعَلِّمُ عن أحد منهم أَنَّهُ استغاث به - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد موته، ولا يمكن أحدٌ يأتي بحرفٍ واحدٍ عن أصحابه أَنَّهُ قال: يا رسول الله ويا محمد مستغيثًا به عند شدة نزلت به؛ بل كُلُّ يرجع عند الشدائد إلى الله - تعالى -، حتى عُبَاد الأصنام إِذَا مَسَّهِمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وهذا خليل الله إبراهيم لما أُرْمِيَ به إلى النار لاقاه جبريل في الهواء فقال له: هل من حاجة؟ قال: أما إليك فلا^(٣)، وهذه الأدعية النبوية المأثورة قد ملأت كتب الحديث

(١) من كلام العلامة نعمان الألوسي في كتابه «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص ٥١٢).

(٢) قال شيخنا: ضعيف.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣٥١ ت. سلامة): «وذكر بعض السلف أَنَّهُ عرض له جبريل

وهو في الهواء فقال: «ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى»، اهـ.

روى الخبر ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٦) عن معتمر بن سليمان التيمي عن

بعض أصحابه، ولم يصح مرفوعًا.

ليس منها حرفٌ واحدٌ فيه استغثةٌ بمخلوق وسؤالٌ بحقه»^(١).

□ مجازفات وانحرافات:

قارن ما سبق نقله وتقريره، مع ما قاله الفقيه - الشافعي - شهاب الدين الرملي^(٢) - عفا الله عنا وعنه - المتوفى سنة (٩٥٧ هـ) حيث جاء في «فتاويه» ما نصه:

«(سُئِلَ): عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد: (يا شيخ فلان)، (يا رسول الله)، ونحو ذلك من الاستغثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين، فهل ذلك جائز، أم لا. وهل للرسول والأنبياء والأولياء والصالحين والمشايخ إغاثة بعد موتهم، وماذا يرجح ذلك؟

(فأجاب): بأن الاستغثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين جائزة وللرسول والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم؛ لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم.

أما الأنبياء فلا أنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم.

والشهداء أيضًا أحياء شهودًا نهارًا جهارًا يقاتلون الكفار.

(١) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطف» (ص ١٠٥ - ١٠٦).

(٢) شهاب الدين - الأب -؛ هو: صاحب «الفتاوى»، وجامع «الفتاوى»، هو ابنه «شمس الدين» صاحب «نهاية المحتاج».

وأما الأولياء؛ فهي كرامة لهم فإن أهل الحق على أنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله - تعالى - بسببهم، والدليل على جوازها أنها أمور ممكنة لا يلزم من جواز وقوعها مُحالٌ، وكل ما هذا شأنه فهو جائز الوقوع»^(١). اهـ.



(١) (٣٨٢/٤)، وبنحوه في «إرغام المرید» (ص ٢٣) للكوثري، وكذا في «المدخل» (١/٢٥٧) (٢٥٨) لابن الحاج، وهذا الكتاب أعني المدخل كتاب متداول، وهو نافع في بابه إلا أنه مؤلفه رحمه الله وعفا عنه قد وقع في بدع وأخطاء كبار تستوجب على المهتمين تحقيقه والعناية به عناية تكمل فوائده، وتستدرك أخطائه وفوائده، وانظر نماذج من الضلال من مثل كلام الرملي عفا الله عنه في كتاب «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/٣٨٩) (٣٩٨).

ردود وتعقبات

□ حقيقة حياة الأنبياء - عليهم السلام -:

أما حياة الأنبياء - عليهم السلام - فهي حياة حقيقية، ولكنها حياة من نوع آخر، فهي ليست حياة دنيوية من جنس المعهود، كما أنها ليست حياةً أُخرويةً، ولا تلازم بين إثبات حياتهم في القبور وبين أن تكون هذه الحياة من جنس الحياة الدنيا.

وما قاله الفقيه الرملي - عفا الله عنا وعنه - ناشيء عن توهم أن حياة الانبياء في قبورهم هي من نوع الحياة في الدنيا التي تقتضي تعلق الروح باستمرار على الوجه الذي يكون في الدنيا، وهذا خلاف ما عليه أهل التحقيق والنظر، بل وخلاف صريح الدليل والأثر. ففي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره - بإسناد حسن - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يُسلم عليَّ إلا رَدَّ الله عليَّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السلام»^(١).

وفي رد الروح حال السلام إشارة إلى أن هذه الحياة هي حياة من نوع خاص، حيث لم يقل الأكثر من أهل العلم بأن هذا الرد يقتضي استمرار الروح في الجسد، ولا قال أحدٌ أن ذلك يستلزم إثبات حياة نظير الحياة المعهودة مستنداً بذلك إلى دليل.

(١) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٠٤١) وقال العلامة الألباني في «المشكاة» (١/ ٢٩١)

التحقيق الأول : «إسناده حسن»، ورواه أحمد في المسند (٢٢٧/٥) وهو في الصحيحة برقم (٢٢٦٦).

نعم؛ كثير من أهل العلم وشراح الحديث لم يوافقوا على هذا المعنى فقالوا: بل الروح مستمرة في الجسد. ومعنى: «إلا رد الله إلي روعي»: أي: إلا (وقد) رد الله علي روعي قبل ذلك فأردَّ عليه، وعللوا: بأن عودَ الروح حال السلام يقتضي استغراق الزمان كُلِّهِ فِي ذَلِكَ لِاتِّصَالِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ مِمَّنْ لَا يُحْصَى كَثْرَةُ^(١)، ويلزم منه تأليم الجسد الشريف بتكرار خروج الروح منه، كما ويستلزم منه حصول موتات كثيرة، وهذا باطل^(٢).

والحق - كما قلنا - أن تلك التعليقات ضعيفة نشأت من ظنهم - عفا الله عنا وعنهم - أن تعلق الروح بالجسد في البرزخ هو من جنس تعلقها به في الحياة الدنيا، وهذا خطأ، وهو من باب قياس الشاهد على الغائب، فأمور الآخرة لا تُدرَكُ بالعقل وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة^(٣).

وفي تقرير هذا المعنى يقول الحافظ ابن عبد الهادي - رَحِمَهُ اللهُ - : «فإن قوله: «إلا رد الله علي روعي» بعد قوله: «ما من أحد يسلم علي» يقتضي رد الروح بعد السلام، ولا يقتضي استمرارها في الجسد ولْيُعْلَمَ أَنَّ رَدَّ الروح إلى البدن وعودها إلى الجسد بعد الموت لا يقتضي استمرارها فيه، ولا يستلزم حياة أخرى قبل يوم النشور نظير الحياة المعهودة، بل إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ إعادة برزخية، لا تزيل عن الميت اسم الموت، وقد ثبت في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في عذاب القبر ونعيمه في شأن الميت^(٤)، وحاله أن روحه تعاد إلى جسده،

(١) انظر: «فتح الباري» (٥٩٦/٦) تحت حديث رقم (٣٤٤١).

(٢) انظر: «رسالتان في حياة الأنبياء»، (ص ٧٩ و ٨١).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٥٩٦/٦).

(٤) رواه جماعة منهم: الحاكم في «المستدرک» (١/ ٣٧ ٤٠)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧).

مع العلم بأنها غير مستمرة فيه وأن هذه الإعادة ليس مستلزمة لإثبات حياة مزيلة لاسم الموت. بل هي أنواع حياة برزخية. والحياة جنس تحته أنواع. وكذلك فإثبات بعض أنواع الحياة لا يزيل اسم الموت كالحياة البرزخية وإثبات بعض أنواع الموت لا ينفي الحياة كما في الحديث الصحيح. عن النبي ﷺ أنه كان إذا استيقظ من النوم قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(١) وتعلق الروح بالبدن واتصالها به يتنوع أنواعاً.

أحدهما: تعلقها به في هذا العالم يقظة ومناماً.

الثاني: تعلقها به في البرزخ والأموات متفاوتون في ذلك فالذي للرسول والأنبياء أكمل مما للشهداء. ولهذا لا تبلى أجسادهم. والذي للشهداء أكمل مما لغيرهم من المؤمنين الذين ليسوا بشهداء.

والثالث: تعلقها به يوم البعث الآخر. ورد الروح إلى البدن في البرزخ لا يستلزم الحياة المعهودة. ومن زعم استلزامه لها لزمه ارتكاب أمور باطلة مخالفة للحس والشرع والعقل.

وفي الجملة رد الروح على الميت في البرزخ. ورد السلام على من يسلم عليه لا يستلزم الحياة التي يظنها بعض الغالطين. وإن كان نوع حياة برزخية وقول من زعم

(٢٨٨)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني:

وهو كما قال، انظر «أحكام الجنائز» (ص ١٩٨ ٢٠٢) تحت فصل الدفن وتوابعه .

(١) «صحيح الإمام مسلم»، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم (٦٨٢٥) (١٧ / ٣٧ «شرح النووي»).

أنها نظير الحياة المعهودة مخالف للمنقول والمعقول، ويلزم منه مفارقة الروح للرفيق الأعلى وحصولها تحت التراب قرناً بعد قرن، والبدن حي مدرك سميع بصير تحت أطباق التراب والحجارة ولوازم هذا الباطلة مما لا يخفى على العقلاء.

وبهذا يعلم بطلان تأويل قول من قال: «إلا رد الله عليّ روحي» بأن معناه: إلا وقد ردّ الله عليّ روحي. وإن ذلك الرد مستمر، وأحياء الله قبل يوم النشور، وأقره تحت التراب واللبن.

فيا ليت شعري هل فارقت روحه الكريمة الرفيق الأعلى؟ واتخذت بيتاً تحت الأرض مع البدن، أم في الحال الواحد هي في المكانين؟^(١) اهـ.

□ معجزات الأنبياء منقطعة بموتهم إلا معجزة القرآن:

وأما دعوى الفقيه الرملي من أن معجزاتهم - عليهم السلام - لا تنقطع بموتهم فذلك من أفسد الفاسد، نعم؛ ما كان من المعجزات دائماً مستمراً ثبت به الخبر والشرع، فهذا يقال باستمراره ودوامه، فهذه معجزة القرآن دائمة إلى قيام الساعة، وأما أن يُعدّ هذا القول إلى سائر المعجزات فهو قول لا يستأهل حكايته، فأين معجزة عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؟ وأين هي آيات موسى التسع عليه السلام وأين معجزات إبراهيم ونوح وسليمان عليه السلام؟

ولفجاجة هذا القول وخروجه عن حد المعقول والمنقول قال الامير محمد بن إسماعيل الصنعائي - رحمه الله - واصفاً تلك المقالة -: «وهذا كلام كما يقال: «لحم

(١) «الصارم المنكي» (ص ٢٩٧ ٢٩٨)، وانظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة»

(١/ ٤٥٠)، و«شرح نونية ابن القيم» لهراس (٢/ ٤ ٢٢).

جَمَلٌ غَثٌّ عَلَى جَبَلٍ وَعَرٍ لَا سَمِينَ يُتَّقَى وَلَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى^(١)، فَأَيُّ دَعْوَى لِلنَّبِوةِ
بعد الموت، وأيُّ تحدي، وأيُّ معجزة^(٢).. اهـ.

□ ليست حياة الشهداء حياة دنيوية من جنس المعهود، بل هي حياة غيبية،

ليست دنيوية ولا أخروية:

وأما ادعاء أن حياة الشهداء هي حياة دنيوية، وأنهم شوهوا يقاتلون جهاراً نهاراً
كرامة!!! فهذا من عجائب الدنيا وغرائب الزمان^(٣)، ولعل الفقيه شهاب الدين
الرملي حكى ذلك عمن رأى جنياً على صورة من مات فظنه الشخص نفسه؟! -
وهذا كثير معروف-، أو لعله حدث عمن رأى ذلك رؤيا منام، أو من وحي
شيطاني أو إلهام؟!!

(١) والمعنى: أن تلك المقالة كحال جمل هزيل لا خير فيه، ومع ذلك لا يُنال ولا يُتَمَكَّنُ منه إلا
بالمشقة، وقد جاء هذا المعنى في حديث أم زرع المشهور الذي رواه البخاري ومسلم
في «صحيحهما» من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه قولها: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌّ
عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينَ فَيُنْتَقَلُ.... والحديث رواه الإمام البخاري في
كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل، برقم (٥١٨٩) (٩/ ٣١٦) «فتح
الباري»، والإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب ذكر
حديث أم زرع، برقم (٦٢٥٥) (١٥/ ٢٠٨) «شرح النووي».

(٢) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطف» (ص ١٠٤) للصنعاني.

(٣) وإن أعجب فعجب ما حكاه الكوثري نقلاً عن الأجهوري: «الولي في الدنيا كالسيف في
غمده فإذا مات تجرد منه فيكون أقوى في التصرف».. اهـ.

«إرغام المريد» (ص ٢٢).

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: «ولكن كثيرًا من الناس يدعو الموتى والغائبين من الشيوخ وغيرهم، فتمثل لهم الشياطين، وتقضي بعض مآربه لتضله عن سبيل الله كما تفعل الشياطين بعباد الأصنام وعباد الشمس والقمر، تخاطبهم وتترأى لهم، وهذا كثير يوجد في زماننا وغير زماننا»^(١).

وما دام إيرادنا هذا ممكنًا فإنَّ إيراد الفقيه الرملي يصير في مهب الريح، بل إن احتمالاتنا هذه أولى بالاعتبار من تلك الاحتمالات المتهاوية، حيث دل على مثلها الواقع الصادق الصحيح.

ثم إن الاستدلال على إمكان وقوع ذلك كرامة للولي الميت محتجًا بدليل الإمكان العقلي فيه خروج عن حد العلم الصحيح، فضلًا عما فيه من مناقضة صريحة لنصوص الكتاب العزيز.

وفي مثل هذا قال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي - رَحِمَهُ اللهُ - في رسالته «الرد على من زعم أن الأولياء يُدْعَوْنَ ويتصرفون وأن ذلك إنما يقع كرامة».

قال: «وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة عقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة»^(٢).

فليس كل ما أمكن وقوعه عقلاً صح اعتباره شرعًا، فكل واقع كونه مخالفٌ

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١٧٢)، و«الرد على المنطقيين».

(ص ١٠٦)، و«تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ٨٧).

(٢) «تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ٦٠ - ٦١).

لنصرٍ شرعاً فهو باطل. فلو قيل: جائزٌ في الآخرة أن يجعل الله الرسل - عليهم السلام- في النار خالدين فيها أبداً، وأن يجعل أعداءه في الجنان خالدين فيها أبداً، مستنداً بأن ذلك ممكنٌ عقلاً^(١)، لعدّ هذا قبيحاً في الشرع وفي العقل. فهذا وإن كان من جهة الإمكان العقلي ممكناً، ولكنه ممتنع شرعاً، وذلك لما تقرر في موارد الشريعة من كمال عدل الرب - سبحانه - وتنزهه عن الظلم.

□ الكرامات: إما رحمانية وإما شيطانية، والشرع فرقان بين هذه وتلك:

ثم إنه لا يجوز التسليم بأن الكرامات هي كرامات رحمانية إذا خالفت نصوص الشريعة.

والحق أن كثيراً ممن يورد هذه الإيرادات ويستدل بهذه الاستدلالات المتهاففة المتهاوية، إنما هم في حقيقة الأمر يُعَظِّمون العقل والذوق، وينتقصون الشرع والنص المعصوم، فليس كل ما كان ممكناً عقلاً صحّ اعتباره شرعاً، نعم؛ في كرامة الولي خرق للعادة غالباً أو أحياناً^(٢)، بل اعتبارها موقوف على غير مخالفة أو نقض للشرع، فإذا خالفت الكرامة شرعاً أو نصّاً كانت حالاً شيطانية، لا كرامة رحمانية، وهذا فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فليُعلم^(٣).

ثم إن فحص القول، وسبر المنقول قبل نشره وإيراده هو علامة التحقيق عند

(١) وهذا جائز على أصول الأشاعرة، وبحثوا ذلك في مبحث امتناع الظلم على الله، وليس هذا مقام بيانه، يُنظر في ذلك: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٣٢٣).

(٢) وإن لم يكن ذلك من شرطها. قال شيخنا: فالكرامة لزوم الاستقامة كما يقول شيخ الإسلام.

(٣) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٥١٥ ٥١٩).

أهل الشأن. ودون ذلك فصاحب النقل حاطب ليل لا يميز بين السواد والبياض.

مَا زَكَا تَفَاحُ لُبَانٍ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ فِي ذَوْقِ مَذَرٍ
هَكَذَا فِي نَظَرِ الْأَعْشَى زَهْرُ رَوْضٍ وَهَشِيمِ الْمُحْتَظَرِ

□ خلاصة الجواب:

وبالجملة: فإن حياة الأنبياء في قبورهم إنما هي حياة خاصة، فليست هي من جنس الحياة الدنيوية، فلا استدلال بهذه الحياة للتوصل إلى جواز الاستغثة بهم ﷺ هو شرك صريح واعتقاد باطل قبيح.

«فقياس حال الموت بحال الحياة هو قياس مع الفارق، لا يُسَلَّم به أبدًا، فيحتاج المدعي إلى دليل يجوز ذلك، ولن يجد إلا ما يدل على نقيض مراده، فلا استغثة بهم ﷺ في قبورهم هي من جنس استغثة المشركين السابقين بالأنبياء والصالحين»^(١)، ولا فرق.

ولقد فسر النبي ﷺ تلك العقيدة تفسيرًا عمليًا، وكذلك أصحابه من بعده، حيث لم ينقل عنه ﷺ أنه استغاث برسول من أولي العزم أو غيرهم من الرسل ﷺ، كما لم ينقل عن الصحابة -أفرادًا أو مجتمعين- أنهم استغاثوا به بعد موته، وهذا الترك منهم لم يكن عن غفلة أو نسيان، فهم أحرص الناس على الحق وأولاهم به، وهذا يدل على أن تركهم مقصود، وذلك دالٌّ على تفريقهم بين حال حياتهم وموتهم ﷺ في أمر الاستغثة والاستشفاع.

(١) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤١١).

وكل ما يُروى في هذا الباب عن الأئمة كالإمام مالك^(١) وغيره، إنما هو كذب لا يصح. وهذا معروف عند أهل العلم من أصحاب الحديث وحقاق الصنعة.

فحقيقة التوحيد - لمن عرف - هو : صرف السؤال والتعلُّق والتألُّ والخضوع لرب العباد والرغبة إليه - سبحانه - وحده لا شريك معه. مع الاعتقاد أنه المالك المدبر المتصرف. وما كان ذلك معناه فصرفه لغير الله شرك. فاعتقاد الداعي في المدعو قُدرةً وتصرفاً وتديراً هو الأصل الذي ينتقض به التوحيد. وينفرط به عقده. ثم التذلل والانكسار والسؤال والدعاء والاستغاثة كل ذلك فرعٌ عنه. فالدعاء هو العبادة. والاستغاثة نوعٌ منه. وبمقدار ما يصرف العبد من دعائه وسؤاله وتعلقه وتذلل لغير الله. بمقدار ما يكون فيه نوع عبودية لذلك الغير. والله الهادي.



(١) انظر « جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة » (ص ٤٢٦)، وسيأتي الكلام عليها.

(فائدة نفيسة) : حكم المخالف - بين الإعذار والإهدار -

والذين يُجَوِّزون الاستغثة بالأنبياء والصالحين هم في ذلك أصنافٌ ومراتب، فقد يكونون مشركين تارة، أو فاسقين ضللاً تارة أخرى.

وتحقيق مناسبات هذه الأحوال وتنزيلها على المعين إنما يرجع إلى تحقق وصف الجهل المعتبر في الشخص المعين.

وفي بيان هذا الحكم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -:

«وهذا الشرك إذا قامت على الإنسان الحجة فيه ولم يتنه، وجب قتله كقتل أمثاله من المشركين. ولم يدفن في مقابر المسلمين. ولم يُصلَّ عليه.

وأما إذا كان جاهلاً لم يبلغه العلم. ولم يعرف حقيقة الشرك الذي قاتل عليه النبي ﷺ المشركين: فإنه لا يُحكم بكفره. ولا سيما وقد كثر هذا الشرك في المنتسبين إلى الإسلام. ومن اعتقد مثل هذا قرابة وطاعة فإنه ضالٌّ باتفاق المسلمين. وهو بعد قيام الحجة كافر»^(١). اهـ.

ويقول الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -:

«وهنا مسألة: لو كان الجهل في أمر يكون ردةً وكفراً مع العلم. مثل أن يكون عامي قد عاش بين قوم يدعون الأموات. ولم يبين لهم أحد أن هذا من الشرك. لكنه يدين بالاسلام. ويقول أنه مسلم. فهل يُعذر بدعائه غير الله؟

الجواب: نعم. يُعذر؛ لأن هذا الرجل قد عاش على هذا الحال. ولم يُبين له

(١) «جامع المسائل» (٣/ ١٤٥) جمع عزيز شمس وانظر للفائدة : «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص ٤٣ ٥٢).

أحد أن هذا شرك، وهو يعتقد أن هذا من الوسائل وليس من المقاصد. يعني: يعتقد أن هذا الميت وسيلة له إلى الله - عز وجل -، يقربه إليه، فنقول: لا يكفر؛ لأنه منتسب إلى الإسلام^(١).

وأصل هذا راجع إلى أن الكفر والشرك حقائق شرعية لا يتحقق مقتضاها في المعين إلا إذا استوفيت الشروط وانتفت الموانع، فالشأن فيه كالشأن في أية حقيقة شرعية أخرى.

فإذا ما صلى العبد صلاة مستوفية للشروط والأركان والواجبات: فإنه حينئذ يسمى مصلياً، وإذا ما صلى العبد صلاة غير مستوفية للشروط والأركان، فإنه لا يُسمى في الشرع مصلياً.

وكذلك: إذا فعل العبد محظوراً ما، فإنه لا ينطبق عليه الوصف الشرعي المتعلق بذلك المحذور إلا بتوفر شروطه وانتفاء موانعه، وهذا كمن جامع امرأة يظن أنها زوجته، فبانت خلاف ذلك، فإنه حينئذ لا يسمى في الشرع زانياً، ولا يترتب في حقه أحكامه.

وكذلك: من شرب الخمر لعلمه أنها ليست محرمة، فهذا لا ينطبق عليه الاسم، كتسميته بالفاسق، ولا الحكم كالحد بالجلد^(٢).

وحقيقة الكفر والشرك داخله في هذا الباب، فمن فعل من أهل الإسلام ما هو شرك أكبر وهو يظن بسبب جهله المعتبر^(٣) أن ما فعله لا يدخل في باب الشرك، فإنه

(١) «شرح منظومة أصول الفقه» (ص ٤٢).

(٢) «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص ٣٣).

(٣) وهذا قيد مهم في إعذار الجاهل، وعدم مؤاخذته، فليس كل جاهل معذوراً، فمناط الجهل المعتبر من عدمه هو ما كان متعلقاً بالإعراض، والتمكن. والذي يدل عليه كلام المحققين من أهل العلم أن الجهل نوعان:

حيثُ لا يوصف بالشرك، ولا تنطبق عليه حقيقته الشرعية.

ومبنى هذا -كله-: على أساس اليقين بثبوت عقد الإسلام لهذا الجاهل ابتداءً. وهذا اليقين لا يقوى على منازعته ونقضه ذياك الشرك. وذلك لطروء المانع عليه وهو الجهل، الذي هو نوع من أنواع الخطأ الداخر دخولاً أولياً في قوله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١).

جهل اختياري: وهو جهل الإعراض، كمن يُعرض بسمعه وقلبه عن سماع الهدى، وهذا لا يُعذر بجهله.

وجهل اضطراري: يكون معه قصد العلم، وإرادة الهدى، وهذا الجهل حاصل بسبب العجز، وعدم التمكن من الوصول إلى الحق، سواء كان السبب ضعف العلم وخفاه، أو فشو البدع وظهورها. وبعض أهل العلم يضيّق الحكم في إعدار الجاهل فلا يُعذر المفرط أيضاً، وهذا غير سديد، فإن عامة الناس من الجهال إنما منشأ جهلهم من جهة تفریطهم في طلب الحق، والوصول إليه.

وقد عدّ ابن القيم رحمه الله المفرط في طلب الحق ممن خالف في بعض الأصول من جملة المسلمين، فها هو يقول:

«فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم فهؤلاء أقسام ...

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية ولكن يترك ذلك اشتغالا بديناه، ورياسته، ولذته ومعاشه، وغير ذلك، فهذا مُفَرِّط مستحق للوعيد آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تارك بعض الواجبات» اهـ.

وانظر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة دراسة نظرية تأصيلية ضمن مجلة الدراسات العقدية» (٣/ ١٨ - ١٩). وقارن بـ «إشكالية الإعدار بالجهل في البحث العقدي» (ص ٥٣ وما بعدها).

(١) انظر: «إرواء الغليل» (١/ ١٢٣).

تحقيق المناط في كون الدعاء أشرف العبادات^(١) وأكرم شيء عند رب الأرض والسموات

دعاء رب الأرض والسماء من أجل العبادات، وأشرف الطاعات، بل هو لبُّ العبادة وروحها، وهو ملجأ الصالحين، وأنيس المتقين، وسلوة العابدين لما يتضمنه من الذلة والافتقار والالتجاء إلى مَنْ بيده الأمر كله - جلّ في عالي سماه - . يقول الإمام الخطابي - رَحِمَهُ اللهُ -: «ومعنى الدعاء : استدعاء العبد من ربه العناية واستمداده إياه المعونة، وحقيقته : إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله - عز وجل -، وإضافة الجود والكرم إليه»^(٢).

وما كان مدار فعله أو قوله من العبد متضمنًا للافتقار، أو مستلزمًا للذلة والانكسار، أو مشتملاً على طلب نفع غيبي؛ كان عبادة ولا ريب.

وعبادة الله وحده لا شريك له، وإفراده بالدعاء والطلب - فيما لا يقدر عليه إلا هو -، دلّت على وجوبها الكتب السماوية، واتفقت عليها الدعوة الرسالية، وهي أصل الدين وقاعدته، فلا يجوز أن يعتريها نسخ ولا تخصيص.

قال الله - جل وعلا -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ

(١) يقول الإمام الشوكاني : «إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة». «الدر النضيد» (ص ٦٩).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٦٢).

لَهُمْ شَرِكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ .
وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ [الأحقاف: ٤-٦] .

وظاهرٌ من دلالة السياق أن قوله - تعالى - : ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أريد به الدعاء المذكور قبل .

ويقول - سبحانه - : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِن أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَدَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠] ؟

أي: قل يا محمد للمشركين : إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب، التي يضطرُّ إلى دفعها، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين .

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونها لعلمكم أنها لا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نُشورًا، وتُخلصون الله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به، وتجعلون له شركاء؟ هل ذلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ أم تفترون على الله الكذب^(١) ؟

يقول ابن جرير - رحمه الله - كما في «تفسيره» - : «يقول - تعالى - ذِكْرُهُ - . مكذبًا

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص ٣٣١) .

لهؤلاء العادلين به ^(١) الأوثان: ما أنتم، أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد. ﴿إِن آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم. بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم، وبه تستغيثون، وإليه تفرعون، دون كل شيء غيره ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٤١] يقول: فيفرج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم؛ لأنه القادر على كل شيء، ومالك كل شيء ^(٢).

فالآية صريحة في أن المراد بالدعاء السؤال ^(٣).

ويقول - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

يقول ابن جرير - رحمه الله -: «يقول - تعالى - ذكره -: وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ضرراً، فأصابتهم شدة وجدوب وقحوط ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي: أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالدعاء والتضرع إليه، واستغاثوا به: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: تائبين إليه من شركهم وكفرهم» ^(٤). اهـ.

ويقول - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمْ بَرِيحٌ طَيْبَةٌ وَقَرْحُوا بَهَا جَاءَ تَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ

(١) أي: المسؤولين به غيره.

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (٧/ ٣٢٣).

(٣) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٣/ ٧٦٦).

(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢١/ ٥١).

بِهِمْ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿يونس: ٢٢﴾.

يقول ابن جرير الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول : أخلصوا له الدعاء هنالك دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ دونها^(١).

ثم أخرج عن قتادة قال : «إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا له الدعاء»^(٢).

وأخرج عن ابن أبي زيد قال : «هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون فإذا كان الضر لم يدعوا إلا الله، فإذا نجاهم إذا هم يشركون»^(٣).

ويقول - سبحانه -: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

يقول ابن جرير الطبري: «يقول - تعالى - ذكره -: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل فخافوا الغرق فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة لا يشركون به هنالك شيئاً، ولا يدعون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره»^(٤).

ثم إن النصوص الكثيرة الآمرة بإفراد الله - تعالى - بالدعاء والناحية عن دعاء غيره دليل على أن الدعاء عبادة وأن صرفه لغير الله شرك، وهذا المعنى جاء مُطَرِّدًا في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ لم يتخلف عن ذلك لفظ من ألفاظها^(٥).

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/١١٧).

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/١١٧).

(٣) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/١١٧).

(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢١/٩٨).

(٥) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/٣٧١ - ٣٧٢).

ومن ذلك قوله - جل وعلا -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

و(إن) - في مثل هذا - تفيد التعليل، وذلك يقتضي أن الدعاء عبادة، وكأنه قال: ادعوني فإن الدعاء عبادة، ومن استكبر عن عبادتي فسيدخل جهنم^(١).

يوضح هذا ما رواه الإمام أحمد (٢٤١ / ٤) - وغيره^(٢) - من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(٣). ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ومنه قوله - تعالى -: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقوله - تعالى -: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

(١) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله»، (٣ / ٧٦٥).

(٢) ورواه الترمذي (٢١١ / ٥)، ابن ماجه (١٢٥٨ / ٢)، والحاكم (٤٩١ / ١) وهو في «الصحيحة» تحت الحديث رقم (٢٦٥٤).

(٣) قال شيخنا: وأما لفظ (مخ العبادة) فلا يصح.

قلت: قد رواه الترمذي وغيره من حديث أنس برقم (٣٣٧١) في أبواب الدعوات: باب ما جاء في فضل الدعاء، وقال عقبه: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ كَهَيَّعَةَ، وقال العلامة اللباني: «ضعيف»، كما في «المشكاة» (٢ / ٦٩٣) برقم (٢٢٣١).

وقوله - جل وعلا - : ﴿وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله - سبحانه - : ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ولقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ بأن يقصر سؤاله ورغبته عليه وحده وذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَالِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨].

يقول الإمام الطبري في «تفسيره»: وقوله: ﴿وَالِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يقول - تعالى - ذكره -: «والى ربك يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه، إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد^(١)».

ومن حديث ابن عباس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: أفضل العبادة الدعاء وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]^(٢).

وروى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال النبي ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢٣٧/٣٠).

(٢) «رواه الحاكم في المستدرک» (١/٤٩٠ ٤٩١)، وصححه ووافقه الذهبي وهو في «الصحيحه» برقم (١٥٧٩).

دَخَلَ النَّارَ وَقُلْتُ أَنَا : مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَدْعُو لِلَّهِ نَدًّا دَخَلَ الْجَنَّةَ^(١).

ودعاء الله وحده والاستغاثة به دون من سواه هي طريقة الأنبياء والمرسلين. فلا يُعرف عن أحد منهم التجاؤه إلى قبر نبي قبله يسأله أو يستغيث به بِحُجَّة طلب القربى والشفاعة. بل كانوا - عليهم الصلاة والسلام - ذوي التجاء إلى من بيده الأمر كله - جل وعلا - لا إلى نبي مرسل ولا إلى ملك مقرب. وأدلة هذا في القرآن كثيرة لا تحصى^(٢).

والحاصل أن العبادة أنواعٌ وصور. وأعظم عبادة تتجلى فيها حاجة الإنسان وعبوديته لرب الأرض والسماء - سبحانه - هو الدعاء. ولذلك قال في الحديث : «الدعاء هو العبادة» ثم تلا قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] - كما تقدم - لِيُبَيِّنَ أن الدعاء هو لبُّ العبادة وروحها.

وفي هذا يقول القاضي عياض - رَحِمَهُ اللهُ - : «أي : هو العبادة الحقيقية - أي : الدعاء - التي تستأهل أن تسمى عبادة. لدلالته على الإقبال على الله. والإعراض عما سواه»^(٣). اهـ.

(١) البخاري كتاب التفسير باب (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا). برقم (٤٤٩٧) (٨/ ٢٢١ فتح)

(٢) انظر : «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٣٧٦).

(٣) انظر : «البيان والإشهار لكشف زيغ الملحد الحاج مختار» (ص ٣٤٢) لفوزان السابق رَحِمَهُ اللهُ .

وفي تفصيل المعنى نفسه - أقرأ ونظرًا - يقول العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - :

فذكر المؤلف^(١) - رَحِمَهُ اللهُ - آيات من كتاب الله - عز وجل - في فضل الدعاء والأمر به. ثم ذكر الأحاديث. ومنها حديث النعمان بن بشير، أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة». يعني: الدعاء من العبادة، ويشهد لهذا قول الله - تعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] لم يقل: يستكبرون عن دعائي. قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدلَّ هذا على أن الدعاء هو العبادة .

ووجه ذلك من النظر أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله - عز وجل - بالكمال وإجابة الدعاء، وأنه على كل شيء قدير وأن العطاء أحب إليه من المنع. ثم إنه لم يلجأ إلى غيره لم يدع غير الله. لا ملكًا. ولا نبيًا. ولا وليًا. ولا قريبًا. ولا بعيدًا. وهذا هو حقيقة العبادة. وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أُثبت على هذا الدعاء. سواء استجيب لك. أم لا؛ لأنك تعبدت لله - عز وجل - . وعبدت الله. فإذا قلت: يا رب! اغفر لي يا رب! ارحمني يا رب! ارزقني يا رب! اهديني. فهذه عبادة تقربك إلى الله - عز وجل - . ويكتب الله لك بها ثوابًا عنده يوم القيامة. والله الموفق^(٢). اهـ.

ويقول القاضي البيضاوي - رَحِمَهُ اللهُ - : «لما حكم بأنَّ الدعاء هو العبادة الحقيقية

(١) يعني: الإمام النووي رحمه الله تعالى .

(٢) «شرح رياض الصالحين» (١٣/٦).

التي تستأهل أن تسمّى عبادة، من حيث إنه يدلّ على أنّ فاعله مقبل بوجهه إلى الله - تعالى -، مُعرض عمّن سواه، لا يرجو ولا يخاف إلّا منه؛ استدلّ عليه بالآية، فإنها تدلّ على أنه أمر مأمور به إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة وترتب عليه المقصود، ترتب الجزاء على الشرط، والمسبّب على السبب، وما كان كذلك كان أتم العبادات وأكملها^(١). اهـ.

وقريب منه ما قاله العلامة محمد البشير الإبراهيمي في «مجالس التذكير» حيث قال - رحمه الله -: «وحديث النعمان بن بشير المرفوع: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» رواه أحمد وأصحاب «السنن»، والعبادة لا تكون إلا لله، لم يدعه، لا وحده ولا مع الله؛ لأن الدعاء لا يكون إلا لله.

وهذا بخلاف ما يفعله الجهّال والضّالّ من طلبهم من المخلوقين من الأحياء والأموات، أن يعطوهم مطالبهم، ويكشفوا عنهم بلاياهم... وهذا جائز أن يسأل المؤمن من أخيه في حال حياته أن يدعو الله - تعالى - له، ومن هذا حديث البخاري في سؤال أم أنس بن مالك من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يدعو لأنس خادمه فدعاه^(٢). اهـ.

ويقول الفقيه ابن الملك الرومي - رحمه الله -: «قال رسول الله: «الدعاء هو العبادة»؛ لأن المقصود الأعظم من العبادة: الإقبال عليه - تعالى - والإعراض عما سواه، بحيث لا يُرجى ولا يُخاف إلا إياه والدعاء لا ينفك عن هذه المعاني، فجعله - عليه

(١) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٩/٢) للقاظمي البيضاوي رحمه الله .

(٢) «مجالس التذكير» (٤٠/١) .

الصلاة والسلام - نفس العبادة»^(١). اهـ.

فكان الدعاء هو العبادة لاشتماله على حقيقة العبودية وروحها ولُبُّها.

يقول أبو المفاخر علي بن عبيد الله المصري - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَجَازَ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةَ بِمَعْنَى الْعِبُودِيَّةِ، وَكَأَنَّ الْعَبْدَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهَا الطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ، وَالْعَبْدُ فِيهِ ذَلٌّ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: الدَّعَاءُ هُوَ الْعِبُودِيَّةُ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَأَلَ رَبَّهُ فِي الدَّعَاءِ وَشَكَّى إِلَيْهِ ضُرَّهُ وَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَتَهُ أَدَّ أَنْ رَبَّهُ مَرْغُوبٌ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ ضَعِيفٌ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاعْتَرَفَ بِالْفَقْرِ وَالذَّلِّ لِمَنْ يَدْعُوهُ»^(٢). اهـ.

والحاصل أن قوله - تعالى - في الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] صريح في أن الدعاء عبادة للمدعو، لتضمنه واشتماله على تذلل وخضوع قلبي يطلب به نفع غيبي.

ففي الآية أمر الله بدعائه، ثم تَوَعَّدَ من استكبر عن عبادته بالعذاب الأليم، فدل هذا على أن الدعاء من جملة العبادة ونوع من أنواعها، بل هو أجل أنواعها، وهذا سبق التنبيه عليه وذكره مرارًا، والله الهادي.

(١) «شرح مصابيح السنة» (٣/ ٧٣) لابن الملك الرومي، وانظر: «المفاتيح شرح المصابيح»

(٣/ ١٢٣) للعلامة مظهر الدين الزيداني.

(٢) «شرح المصابيح» (٣/ ٣٢٧) لأبي المفاخر علي بن عبيد الله المصري.

الاستغثة فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، فالاستغثة عبادة، وهي أخصُ الدعاء وأجلُّ أحوال الالتجاء - تدليلٌ وتعليلٌ -

وهذا الأصل سبقَت الإشارة إلى معانيه في أثناء البحث. ولكن نفرده لأهميته فنقول:

دل برهان الشرع على أن الاستغثة بغير الله - فيما لا يقدر عليه إلا الله - شرك أكبر. ونص العلماء على أن مناط الشرك في الاستغثة بغير الله هو من وجوه ثلاثة :
أولها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يعلم الغيب وإلا لما دعاه البتة.

ثانيها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يسمع صوته ونداءه وإلا لما هتف باسمه.

ثالثها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يقدر على قضاء حاجته من دفع ضرر، أو كشف كربة، وإلا لما ناداه عند الكربات وهجوم الملمات^(١).

والدعاء يلزمه التذلل، والرَّعْبُ، والرَّهْبُ، وأيضاً يلزمه - ولا بُدَّ - الاعتقاد في المدعو، مع تعظيم يُتدين به، لذلك فهو عبادة^(٢). ولَمَنْ يُجَوِّز الاستغثة بالأموات

(١) انظر: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (٢/ ١١٦٣) لشمس الدين الأفغاني.

(٢) انظر: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٣/ ٧٣٣ - ٧٣٤)، وسيأتي الكلام عن أنواع الدعاء المشروع منه والممنوع.

نصيب وافر من تلك التعلقات والتألهات.

قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ . وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وهذا خطاب للرسول ﷺ: أي: لا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة. ولا يضرّك في دين ولا دنيا. فإن فعلت فدعوتها من دون الله. فإنك إذا من الظالمين: أي: المشركين بالله. والرسول ﷺ معصوم من الشرك وسائر كبائر الذنوب. وإنما هذا تعليم للأمة من بعده. وتحذير لها من مداخل الشرك وذرائعه^(١).

وقال - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٧-١٨].

ولا شك أن كلّ داعٍ متذلّل هو عابِدٌ لمن يدعوّه. كما أن كلّ داعٍ لولي أو نبي أو صالح هو داعٍ لمن هو (من دون الله). فدلالة السياق في الآية قاضية بدخول سائر خلق الله في معنى النهي عن دعائهم. والذم لمن دعاهم.

وقال - جل شأنه -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص ٤٠) بتصرف يسير .

والمستغيث بالمخلوق إنما ينادي ويدعو غير الله، كأن يستغيث قائلاً: يا رسول الله أنقذني من هذه الشدة، أو: يا عبد القادر، أو: يا دسوقي، أو: يا رفاعي، أو: يا بدوي... إلخ.

ولا ريب أن المستغيث بغير الله داخل في عداد الظالمين المشركين.

وكيف يستغيث العاقل المؤمن بغير الله، وهو يقرأ هذه الآيات أو يسمعها^(١)؟!

وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا مَّا نَذَكِّرُوكَ﴾ [النمل: ٦٢].

وفي هذه الآية بين الله أن المشركين من العرب ونحوهم، كانوا يعلمون أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده، فذكر ذلك محتجاً عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾ بالاستفهام الإنكاري، أي: ليس إله مع الله يجيب المضطر ويكشف السوء^(٢)، ففيها دلالة صريحة مدوية على أن دعاء غير الله شركٌ وتأليه للمدعو، حيث أنكر - سبحانه - على من يدعو غيره في كشف الضرر، ثم أتبعها مخبراً: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾.

وإذا قلنا بأن الاستغثة عبادة؛ فما الدليل من الكتاب والسنة على ذلك؟ فالأصل في العبادات التوقيف، ولا بد لها من دليل من الكتاب أو من السنة، فكل عبادة ثبتت بالشرع أنها عبادة فصرفها لغير الله شرك.

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص ٤١).

(٢) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص ٤٢).

والجواب :

أما الدليل على أن الاستغثة عبادة لله - تعالى -، فهو مجموع ما ذكرناه من النصوص الصريحة الكثيرة الدالة على أن الدعاء عبادة.

وكذلك أيضًا ما قاله الله - تعالى - مخبرًا به عن عباده: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ أي: لأنكم تضرعتم وتذللتم واستغثتم بربكم، فقد أتيتم بما عليكم من التذلل، والتعبد الذي هو روح العبادة ولُبُّها، حيثُ جاء الجواب بقوله - سبحانه -: ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ مِنَّةً وكرمًا منه - جل في علاه -.

أما من السنة: ففي «الصحيحين» من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال - وهو يخطب بالناس -: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا»^(١).

ومن حديث عبادة ابن الصامت - قال : قال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله - عز وجل -»^(٢).

(١) «البخاري»، كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، برقم (١٠١٤) (٢/٦٥٤) «فتح الباري»، و«مسلم»، كتاب صلاة الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٢٠٧٥) (٦/٤٣١) «شرح النووي».

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٥٩)، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد غير هذا السياق.

قلت: وسياق أحمد (٥/٣١٧): قال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقام لي إنما يقام لله». اهـ.

ولقائل أن يقول : هذا حديث قد تكلم فيه الحفاظ، إذ في سنده ابن لهيعة، وهو مُتَكَلِّمٌ فيه، فالاستشهاد به ساقط مردود.

وجوابنا : إن هذا الخبر -على فرض التسليم بضعفه- إنما نذكره للاعتضاد به مع غيره، ولسنا نذكره للاعتماد عليه مجرداً عن غيره من الدلائل والأصول، حيث إن معناه موافق لمعاني ما جاء في الكتاب والسنة، فهو استدلالٌ اعتضاديٌّ، وليس ابتدائياً استشهادياً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمته- : «هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه، بل ذكر في ضمن غيره، ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة، كما أنه إذا ذكر حُكِمَ بدليل معلوم، ذكر ما يوافقه من الآثار، والمراسيل، وأقوال العلماء، وغير ذلك؛ لما في ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأن الواحد من ذلك يُعْتَمَدُ عليه في حكم شرعي.

ولهذا كان العلماء متفقين على جواز الاعتضاد والترجيح، بما لا يصلح أن يكون هو العمدة من الأخبار التي تُكَلِّمُ في بعض رواها لسوء حفظ، أو نحو ذلك، وبآثار الصحابة والتابعين، بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للاعتضاد، فما يصلح للاعتضاد نوع، وما يصلح للاعتماد نوع، وهذا الخبر من النوع الأول، فإنه رواه الطبراني في «معجمه» من حديث ابن لهيعة.

وقد قال أحمد : قد كتبت حديث الرجل لأعتبر وأستشهد به، مثل حديث ابن لهيعة فإن عبد الله بن لهيعة -قاضي مصر- كان من أهل العلم والدين، باتفاق العلماء، ولم يكن ممن يكذب باتفاقهم، ولكن قيل : إن كتبه احترقت، فوقع في بعض حديثه غلط، ولهذا فرّقوا بين من حدث عنه قديماً وبين من حدث عنه حديثاً

وأهل «السُنن» يروون له^(١).

والحاصل، أنه إن ثبت أن الاستغثة عبادة^(٢) فصرفها لله توحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

□ مسألة في معنى قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

- ترجيحًا وتوجيهًا - :

وقد قيل بأن المراد بـ (ادعوني) في قوله - تعالى - : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ : أي : (اعبدوني)، وهذا هو أحد القولين في معنى الآية، وما كان في معناها من الآيات المشتملة على اسم الدعاء في سياق الأمر به، أو الإخبار عن حال المشركين معه، بل كاد المفسرون المتأخرون يطبقون عليه في هذه الآية، وفي سائر آيات الباب .

وقيل : بل لفظ الدعاء في الآية على ظاهره، وهو النداء والسؤال والطلب.

وهذا الأخير هو ما رجحه ذهبي عصره العلامة الألمعي عبد الرحمن المعلمي اليماني - رَحِمَهُ اللهُ - وجماعة، وأيدَ وجه الرجحان من وجهين :

الأول: هو أن الأصل في النصوص حملها على ظاهرها؛ إذ لا يصار إلى ما يخالف الظاهر من المعاني والحقائق إلا بالقرائن الصارفة، والمَرَجَّحات المعتبرة.

وفي هذا المعنى يقول اليماني - بعد كلام - : فإن قلت: المفسرون لم يقولوا إن الدعاء في الآيات جميعها بمعنى النداء بل قالوا في أكثرها إنه بمعنى العبادة؟!

فالجواب: أن الأصل الحقيقة، ولا يجوز العدول عنها إلا لصارف يصرف

(١) «تلخيص كتاب الاستغثة» (ص ١٥٣ ١٥٤).

(٢) قال شيخنا: وهو ثابت لا ريب.

عنها ولا صارف هنا، بل مقابلة الدعاء بالاستجابة مؤيد لها، وإخراج الكلام عن ظاهره بغير صارف تحريف للكلم عن مواضعه وقرمطة لو فُتح بابها لعاد الدين لعبة. اهـ^(١).

وفي المعنى نفسه يقول القسطلاني -رحمته- في «شرح» على «البخاري» ما نصه :

«وقيل : المراد بقوله: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الأمر بالعبادة بدليل قوله بعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين ذليلين، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً﴾ [النساء: ١١٧] وأجيب : بأن هذا ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل.

وقال العلامة تقي الدين السبكي : «والأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة؛ فقد استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيد إنما هو في حق من ترك الدعاء استكباراً ومن فعل ذلك كفر». اهـ^(٢).

الثاني : أنه لا يُعرف في اللغة تفسير الدعاء بالعبادة .

(١) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله»، (٧٦٢/٣) لليماني، ضمن مجموعة آثاره رحمه الله تعالى .

(٢) «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري»، (١٧٣/٩)، كتاب الدعوات باب لكل نبي دعوة مستجابة.

يقول العلامة اليماني - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ تَفْسِيرُ الدَّعَاءِ فِي بَعْضِ ذَلِكَ بِالْعِبَادَةِ، وَكَادَ الْمَفْسُرُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ يُطَبِّقُونَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ حَتَّى الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلْمَجَازِ كصاحب «القاموس»، وصاحب «الأساس»، وصاحب «المصباح»، بل لم يذكره الراغب، مع أن كتابه موضوع لغريب القرآن، وَمَنْ ذَكَرَهُ كصاحب «اللسان» فَإِنَّمَا ذَكَرَهُ تَفْسِيرًا لِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ الْقُرْآنِيَةِ.

وهذا من أشد العيوب في كتب اللغة يعمدون إلى بعض الكلمات التي جاءت في القرآن، وفسرها بعض السلف بشيء، أو فهموه هم من القرآن، فيثبتون ذلك لُغَةً، مع أن السلف كانوا يتسامحون في التعبير؛ ثَقَّةً بفهم السامع، فربما فسَّروا الكلمة بلازمها، أو ببعض ما يدخل تحت عمومها»^(١). اهـ.

ويقول - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَلَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ الدَّعَاءَ فِي الْآيَاتِ مَجَازٌ عَنِ الْعِبَادَةِ لَكَانَ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ الْعِلَاقَةُ هِيَ الْخُصُوصُ وَالْعُمُومُ، وَعَلَيْهِ فَهُوَ حُجَّةٌ لَنَا أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْأَخْصَرَ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى الْأَعْمِ إِذَا كَانَ الْأَخْصَرُ هُوَ الْأَهْمُ أَوْ مِنَ الْأَهْمِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَعَانِي، وَعَلَيْهِ فَدَعَاءُ الْمُشْرِكِينَ آلِهَتُهُمْ أَعْظَمُ عِبَادَتِهِمْ لَهَا أَوْ مِنْ أَعْظَمِهَا، فَثَبِتَ بِذَلِكَ كَوْنُهُ عِبَادَةً وَزِيَادَةً.

وعندي أَنَّ مَنْ فَسَّرَ الدَّعَاءَ بِالْعِبَادَةِ؛ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ تَوَهُُّمُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآلِهَةِ فِي الْآيَاتِ الْأَصْنَامَ، وَرَأَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَسْأَلُونَ مِنْهَا شَيْئًا، فَهَذَا الَّذِي اضْطَرَّه إِلَى التَّأْوِيلِ.

(١) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والآله» (٣/ ٧٥٥ - ٧٥٦) ضمن مجموعة آثاره رَحِمَهُ اللهُ .

مع أن قوله - تعالى -: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عِصْفَيْنِ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤] ظاهرٌ في أنهم كانوا يدعون الأصنام، فقولُه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ صريحٌ في أن المراد الدعاء بالكلام، وقولُه: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ظاهرٌ في أنه ليس المراد بالدعاء مجرد النداء، بل المراد به السؤال طلباً للنفع واستدفاعاً للضرر، حيث إن القوم كانوا يسألون الأصنام على نية السؤال من الروحانيين أو الكواكب، حيث يعتقد المشركون أن تلك الأصنام شخوص وصور لها، تقرهم إلى أولئك الروحانيين من الملائكة ونحوهم، أو إلى تلك الكواكب التي يعتقدون فيها التصرف والتدبير للعالم السفلي^(١).

وقد فسّر ابن القيم - رحمه الله - الدعاء في قوله - تعالى -: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] بدعاء المسألة، إذ هو المعنى الظاهر من السياق، ورجّح أن استعمال الدعاء في العبادة والمسألة من استعمال اللفظ في حقيقته الواحدة، فليس هو من المشترك^(٢)، ولا المتواطئ^(٣)، ولا

(١) انظر: «رفع الاشتباه» (٣/ ٧٦٣ - ٧٦٤) و (٣/ ٦٢٠).

(٢) والمُشْتَرَك: هو اللفظ الواحد الذي يُطْلَق على أشياء مُخْتَلِفَة؛ كالعين؛ فإنّها تُطْلَق على آلة البصر، وعين الماء، والجاسوس، وذات الشيء. انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٠٧١ - ١٠٧٤).

(٣) الْمُتَوَاطًى: هو الكلّي الذي استوى معناه في أفرادهِ كـ «الإنسان» فإنه متساوي المعنى في أفرادهِ

المجاز^(١).

والمقصود من إيراد ما سبق هو بطلان قول المدعي بأن المراد بالدعاء في سائر الآيات هو العبادة، وسلب معنى الدعاء عن مدلول اللفظ. فإن هذا مما يعلم بطلانه، والله المستعان .



من زيد وعمرو، وغيرهما، لكن هذا المعنى الكلي الذي يجمعهم لا يعني أن حقيقة زيد هي نفسها حقيقة عمرو، بل كلُّ له حقيقته الخاصة، وإن كان يجمعهم معنى الإنسان. وسُمي متواطئًا من التوافق؛ أي: لتوافق أفراد معناه فيه.

انظر: «البدر الطالع في حلّ جمع الجوامع» (١/ ٢٢٤) لجلال الدين المحلي، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٠٧٢) لعبد الرحمن المحمود.

(١) المجاز عند القائلين به ؛ هو: اللفظُ المُستعملُ في غير ما وُضعَ له أوّلاً بوضع ثانٍ لِعلاقة. انظر: «حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع» (١/ ٤٢٢) مبحث المجاز، و«التعريفات» (ص ١٤٩ - ١٥٠) للجرجاني، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٩) لابن القيم رحم الله الجميع ، والحاصل أن إطلاق الدعاء على العبادة والمسألة ليس هو من قبيل المُشترك، ولا المتواطئ، ولا المجاز، بل لكلِّ حقيقته وحدّه.

صد قول المعتدي بأن الدعاء ليس شركاً إلا إذا تضمن اعتقاداً في المدعو - ردّاً ونقضاً -

وهذه مسألة يتخبط فيها أهل البدع، حيث يقولون : إن الدعاء ليس عبادة في نفسه، وليس صرفه لغير الله شركاً إلا إذا تضمن اعتقاداً في المدعو، كأن يعتقد فيه صفة من صفات الربوبية، ويقولون - بناءً على هذا الأصل الفاسد - بجواز الدعاء والاستغثة بالأولياء والصالحين، بل وحتى الحجر إذا لم يعتقد فيه صفة من صفات الربوبية! أو لم يعتقد فيه النفع استقلالاً!

وهذا - لعمر الله! - هو الشرك بعينه، وهو عين مقالة عبّاد الأصنام من المشركين الأولين الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وغاية الفرق بينهم وبين مشركي زماننا أن صنم أولئك من حجارة أو خشب، وصنم هؤلاء من سلالة من طين.

وهذا يذكرنا بما قاله الخميني الرافضي - مُقرِّراً عقيدة المشركين - وذلك في كتابه «كشف الأسرار» (ص ٤٩): حيث قال: «وبعد أن تبيّن أنّ الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهاً فإنّ ما دون ذلك ليس بالشرك، ولا فرق في ذلك بين حيٍّ وميت، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركاً». اهـ.

فسبحان الله! ما أقبح هذا الاعتقاد، فالعابد عند أولئك لا يكون عابداً حتى

يعتقد فيمن عبده أن له شيئاً من صفات الربوبية، وأمّا من دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو استعان بغير الله، أو رجا غير الله، أو خاف غير الله من قبر، أو شجر، أو حجر؛ فإنّ ذلك لا يكون شركاً ما لم يعتقد العابد فيها أنّ لها شيئاً من صفات الربوبية، وعلى هذا فقول النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»^(١) ينقصه هذا القيد: «وهو: أن يعتقد في المدعو شيئاً من صفات الربوبية»^(٢)!!

ثم هل أهل العلم من الصحابة والتابعين وأتباعهم لم يفتنوا لهذا القيد ولا عرفوه؟! عرفوه!!

فإما أنكم جئتم شيئاً إذاً - وهذا الأليق بكم - أو أنكم فقتم أصحاب محمد ﷺ - وحاشاهم - فهماً وعلماً!! فسبحان الله هدى من شاء إلى الحق بفضله، وخذل من شاء من الخلق بعدله، له الحكمة البالغة^(٣).

ثم إنّ نصوص القرآن الكريم المشتملة على الدعوة إلى إخلاص الدين لله، وإفراده وحده بجميع أنواع العبادة كثيرة جداً، ومن ذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقول ابن كثير - رحمه الله - : «يذكر - تعالى - حال المشركين به في الدنيا، وما لهم

(١) «البخاري»، كتاب التفسير باب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، برقم (٤٤٩٧) (٢١ / ٨) «فتح الباري».

(٢) قال شيخنا: وهذا عين الباطل.

(٣) انظر: «القول السديد في الرد على من أنكر التوحيد»، (ص ٧١ - ٧٢).

في الدار الآخرة. حيث جعلوا أنداداً أي: أمثالاً ونظراء. يعبدونهم معه. ويحبونهم كحبه. وهو الله لا إله إلا هو. ولا ضدَّ له ولا ندَّ له. ولا شريك معه.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، قال: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمايم معرفتهم به. وتوقيهم وتوحيدهم له. لا يشركون به شيئاً. بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه. ويلجأون في جميع أمورهم إليه»^(٢).

فالعبادة بأنواعها حقٌّ خالص لله لا يجوز صرفها لغيره. سواء اعتقد العابد في معبوده أنه ربٌّ أو لم يعتقد. وهذا أمرٌ معلومٌ من الدين بالضرورة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز أن يعبد. ولا يدعو. ولا يستغيث. ولا يتوكل إلا على الله. وأن من عبد ملكاً مقرباً. أو نبياً مرسلًا. أو دعاه. أو استغاث به. فهو مشرك. فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل. أو: يا ميكائيل. أو: يا إبراهيم. أو: يا موسى. أو: يا رسول الله اغفر لي. أو ارحمني. أو ارزقني. أو انصرني. أو أعطني. أو أجري من عدوي. أو نحو ذلك. بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه مسألة شريفة معروفة قد بينها العلماء»^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٠ ت. سلامة).

(٣) «الفتاوى» (٣/ ٢٧٢).

أحكام الطلب، ومتى يكون دعاء

أو

الدعاء أنواعه وصوره - تحريراً وتقريراً -

ولقائل أن يقول : قد علمنا أن السؤال من الله - تعالى - والرغبة إليه يسمى دعاء وأنه عبادة، وأن صرفه لغير الله شرك بالله - عز وجل -، ولكن ما صورة السؤال الذي إذا وقع لغير الله - تعالى - كان دعاءً للمسؤول وشركاً بالله - تعالى -؟

والجواب : إن الجهال من أهل البدع يستدلون - ملزمين - بأن كل سؤال أو نداء أو طلب أو التماس من العبد لغيره يُسمى في اللغة دعاء، ويقولون: فكل طلب أو نداء من العبد لغيره يكون شركاً على أصلكم.

وجواب هذه المغالطات يظهر من خلال معرفة وجوه السؤال وأنواعه، حيث إن ذلك على أقسام:

القسم الأول: ما هو من باب سؤال الإنسان حقاً له عند آخر، كمن له دينٌ على إنسان فيطلبه منه، ومنه، أمر النبي ﷺ الناس بالصلاة عليه^(١)؛ فإن ذلك حق له عليهم^(٢)، وهذا النوع لا يسمى استعانة ولا استغاثة ولا يلزم منه التذلل والخضوع.

(١) وفي الباب أحاديث منها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ. فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ». رواه الإمام مسلم في (كتاب الصلاة باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة) برقم (٨٤٧) (٤/ ٣٠٧ «شرح النووي»).

(٢) كما أن في ذلك معنيين آخرين : الأول : تبليغهم حكماً شرعياً، والثاني : إرشاد الناس إلى ما

وهذا النوع لا محذور فيه، بل قد يكون مستحباً أو واجباً.

القسم الثاني : ما جرت به العادة بالتسامح، وجرى به العمل بين الناس تفضلاً وإحساناً أو على نية المكافأة، كقول التلميذ لزميله : ناولني الكتاب، أو : أعطني قلمًا، وهذا النوع وإن سُمِّي استعانة، أو دعاءً إلا أنه مما جرى به التسامح بين الناس، حيث إن له معنىً يعقل، وهو مما يندرج تحت قدرة العبد، كما أنه لا يلزم منه التذلل والخضوع، وإن كان فيه رائحة من ذلك - أحياناً - .

القسم الثالث : سؤال الإنسان ما ليس له بحق، ولا جرت به العادة بالتسامح بين الناس، ومن ذلك قول من يجد الكفاية من الرزق لغني لا حق له عليه: أعطني مالاً، وهذا النوع يلزم منه التذلل والخضوع والانكسار - ولا بُدَّ -، لذلك كان في السائل نوع عبودية لهذا المسؤول.

القسم الرابع : النداء وهو رفع الصوت بالدعاء، ويقابله المناجاة وهي المُسَارَّةُ وخفض الصوت.

والنداء - باتفاق أهل اللغة - ليس قسيماً للدعاء بل هو نوع منه ^(١).

والنداء للغير أنواع ثلاثة :

الأول : نداء عبادة؛ ومنه نداء الإنسان لغائب أو ميت، وهذا النوع شركٌ. فالدعاء بهذا التوصيف عبادة، لما فيه من تَذَلُّل واعتقاد في المدعو، فضلاً عن كونه مستلزماً - أيضاً - للتعظيم الذي يُتَدَيَّنُ به، وهو ما يُطلب به نفع غيبي، وهو النفع

فيه نفعهم وصلاحهم.

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٠/١٤٩)، و«المصباح المنير» (٢/٨٢٢) مادة

(ندا)، و«تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ١٢٩).

الحاصل على خلاف العادة المبنية على الحس والمشاهدة.

ومن هذا: قوله - تعالى - : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا الْتَوَيْنَا مِنْ دُونِ الْوَادِي إِذْ هَبَّ مَعْصِفًا فَظَنَّا أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

الثاني: نداء الحي الحاضر؛ كأن ينادي الإنسان غيره طالباً منه حاجة، أو سائلاً إياه أمراً أو منبهاً له على شيء. وهذا النوع يلتحق بالأقسام الثلاثة الأولى، فإلى أيها كان أقرب شبيهاً الحق به.

الثالث: نداء الغائب؛ على معنى شهوده واستحضاره في القلب، واستذكاره.

ومن هذا قول المصلي في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»^(١).

ومنه ما روي عن ابن عمر أنه «لما خَدِرَتْ رِجْلُهُ قِيلَ لَهُ: اذْكُرْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد»^(٢).

ومنه: قول الرجل في حديث عثمان بن حنيف - المشهور - : «... يا محمد! إني تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَىٰ رَبِّي...»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» كتاب الأذان باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، و«مسلم» كتاب الصلاة

باب التشهد في الصلاة، رقم (٨٣١) عن عبد الله بن مسعود (٤٠٢/٢) «فتح الباري».

(٢) رواه البخاري في «الأدب» المفرد برقم (٩٦٤) بإسناد ضعيف؛ لذلك أورده العلامة

الألباني في «ضعيف الأدب» برقم (١٤٨)، وفي «ضعيف الكلم الطيب» برقم (٢٣٥).

(٣) رواه جماعة منهم الإمام أحمد في «مُسْنَدِهِ» (١٣٨/٤)، وعبد بن حميد في «المستخب» برقم

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: «وقوله: يا محمد! يا نبي الله! هذا وأمثاله نداءٌ يُطلب به استحضار المُنادي في القلب فيُخاطَب المشهودُ بالقلب كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا، يخاطب من يتصوره في نفسه، وإن لم يكن في الخارج»^(١). اهـ.

والحاصل أن الخطاب هنا ليس على باب، وإنما هو على التنزيل؛ أي: تنزيل الغائب منزلة الحاضر للدلالة على استحضاره في الذهن، وكأنه حاضر شاهد^(٢).

واستعمال هذا النوع من النداء في لغة العرب على معنى الاستحضار القلبي فحسب، معلومٌ لا يخفى^(٣).

وأهل البدع يظنون أن أهل السنة حين ينكرون عليهم نداء الأموات والاستغثة بهم أن ذلك على اعتبار النداء المجرد عن حقيقته ومضمونه، فجمعوا مثل تلك النصوص ظانين أنها الحجة التي تقصم الظهور، لذلك خلطوا بين تلك الأنواع جميعها من أنواع

(٣٧٩)، والترمذي في (كتاب الدعوات) برقم (٣٥٧٨) (٥/ ٥٣١)، والنسائي في «الكبرى» (كتاب عمل اليوم والليلة) ذكر حديث عثمان بن حنيف برقم (١٠٦٠٤) (١٠/ ٢٥٦)، وابن خزيمة (باب صلاة الترغيب والترهيب) برقم (١٢١٩) (٢/ ٢٢٥)، والحاكم (١/ ٣١٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه العلامة الألباني. وانظر: «التوسل» (ص ٧٥)، و«صحيح الجامع الصغير» (١٢٧٩).

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٩).

(٢) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٣/ ٨٠١ - ٨٠٦).

(٣) جاء في «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» للقلقشندي (١/ ٤٦٣) ما نصه: «كانوا يقولون: إنَّ الرَّجُلَ إِذَا حَدَرَتْ رِجْلُهُ فَذَكَرَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ ذَهَبَ عَنْهُ الْخَدِرُ، قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ كِلَابٍ:

إِذَا حَدَرَتْ رِجْلِي ذَكَرْتُ ابْنَ مَصْبٍ فَإِنْ قُلْتُ: (عبد الله) أَجَلِي فُتُورَهَا

وجاء في «محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصفهاني (٢/ ٦٦) قول الشاعر:

إِذَا مَذَلْتُ رِجْلِي ذَكَرْتُكَ اشْتَفِي بِدَعْوَاكَ مِنْ مَذَلٍ بِهَا فِيهِونَ

السؤال فجعلوها نوعاً واحداً مُلبَّسين بذلك على الجُهال من الناس.

فمن المعلوم أن سؤال الناس بعضهم من بعض في الأقسام الثلاثة الأولى. وفي الفرع الثاني من القسم الرابع. معلوم أن ذلك مما جرت به العادة وذلك لقدرتهم عليه. وإن كان من أنواعه تلك ما فيه نوع تذلل إلا أنه لا يطلب به نفع غيبي. حيث إن تلك الانواع جميعها إنما يكون الطلب والسؤال فيها من حي حاضر قادر. وهذا وإن كان نفعاً لكنه ليس غيباً. فنحن ندرك بالحس والمشاهدة أن الإنسان الحي الحاضر يسمع طلبنا. ويوجب دعاءنا. وهذا بخلاف دعاء النبيين والاستغثة بالصالحين. فأَيُّ نفع يرجوه الحي من الميت؟ وأين برهان الشرع وسلطانه الدال على الجواز؟!!

لذلك قال الشيخ مبارك الميلي - رَحِمَهُ اللهُ -: وإذا كان المطلوب لا يقدر عليه إلا من له قوة غيبية وهو فوق الأسباب العادية؛ كان الطلب عبادة تختص بالله - تعالى -، ويكون طلب غيره حينئذٍ شركاً بالله.

وأما القسم الثالث من أقسام النداء فهو مما جرى استعماله في لسان العرب. وهو معروف في أشعارهم وأقوالهم على معنى استحضار المذكور في القلب. فهو وإن كان نداءً من حيث الصيغة واللفظ. لكنه ليس كذلك من حيث الحقيقة الحُكْمِيَّة التي نهت عنها الشريعة. فالمحذور إنما هو النداء المتضمن للدعاء والطلب.

والمقصود أن سؤال البشر الأحياء بعضهم بعضاً. كل ذلك مما جرت به العادة بقدرتهم عليه. كما أن له معنى يُعَقَّل ويُدْرَك. ولا يطلب به نفع غيبي. وليس الأمر كذلك في سؤال الأحياء من الأموات^(١).

فظهر الفرق جلياً بهذا بين أنواع السؤال السابقة الذكر والله الحمد والمنة.

(١) انظر «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» ٣/ ٧٦٩ ٧٩١ ضمن آثار العلامة عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ اللهُ .

قواعد أربع تجمع أصول ما قد سبق

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رَحِمَهُ اللهُ - أصول وتقريرات، وتحقيقات محكمات، في أبواب العقائد وغيرها من المسائل المهمات، لا يكاد يستغني عنها المبتدي، وعن مراجعتها والنظر فيها المنتهي، ومما قرره - رَحِمَهُ اللهُ - في (باب التوحيد) قواعد أربع يعرف المُوَحِّدُ بها معنى شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها حقائق التوحيد من أباطيل الشرك.

قال - رَحِمَهُ اللهُ -: «أما بعد: فهذه أربع قواعد ذكرها الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويُمَيِّزُ بها بين المسلمين والمشركين؛ فتدبرها، يرحمك الله؛ وأصغ إليها فهمك؛ فإنها عظمة النفع.

الأولى: أن الله ذكر أن الكفار في زمن رسول الله ﷺ كانوا يقولون أن الله الخالق، الرازق، لا يشاركه في ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وأنه لا يرزق إلا هو، وأنه - سبحانه - منفرد بملك السماوات والأرض، وأن جميع الأنبياء، والمرسلين عبيد له، تحت قهره وأمنه.

فإذا فهم أن هذا مقر به الكفار، ولا يجحدونه، وسألك بعض المشركين عن دليله، فاقراً عليه، قوله - تعالى - في حق الكفار: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوبُونَ. قُلْ مَنْ يُبْدِيهِمْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

يُحْيِرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٤-٨٩﴾.
[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.
[يونس: ٣١].

القاعدة الثانية: أنهم يعتقدون في الملائكة، والأنبياء، والأولياء، لأجل قربهم من الله - تعالى -. قال الله - تعالى - في الذين يعتقدون في الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٠-٤١﴾﴾.
[سبأ: ٤٠-٤١].

وقال: في الذين يعتقدون في الأنبياء: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. قُلْ اتَّبِعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥-٧٦﴾﴾.
[المائدة: ٧٥-٧٦].

وقال في الذين يعتقدون في الأولياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية.

القاعدة الثالثة: وهي أن الله العلي الأعلى ذكر في كتابه، أن الكفار ما دعوا الصالحين، إلا لطلب التقرب من الله - تعالى -. وطلب الشفاعة؛ وإلا فهم مقررون بأنه لا يدبر الأمر إلا الله كما تقدم، فإذا طلب المشرك الدليل على ذلك، فاقراً عليه

قوله - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] .

وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] .

فإذا فهمت هذه المسألة، وتحققت أن الكفار عرفوا ثلاث هذه المسائل، وأقروا بها:

الأولى: أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا يخفض، ولا يرفع، ولا يدبر الأمر، إلا الله وحده، لا شريك له.

الثانية: أنهم يتقربون بالملائكة والأنبياء، لأجل قربهم من الله وصلاتهم.

الثالثة: أنهم معترفون أن النفع والضرر بيد الله، ولكن الرجاء، من الملائكة والأنبياء للتقرب من الله، والشفاعة عنده.

فتدبر هذا، تدبراً جيداً، واعرضه على نفسك ساعة بعد ساعة؛ فما أقل من يعرفه من أهل الأرض، خصوصاً من يدعى العلم! فإذا فهمت هذا، ورأيت العجب، فاعرف وحقق المسألة الرابعة وهي: أن الذين في زمن رسول الله ﷺ لا يشركون دائماً، بل تارة يشركون، وتارة يوحدون ويتركون دعاء الأنبياء والشياطين؛ فإذا كانوا في السراء دعوهم، واعتقدوا فيهم وإذا أصابهم الضر، والألم الشديد، تركوهم، وأخلصوا الله الدين، وعرفوا أن الأنبياء، والصالحين، لا يملكون نفعاً، ولا ضرراً.

فإذا شك أحد في أن الكفار الأولين كانوا يخلصون لله بعض الأحيان، فاقراً عليه قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فهذا الذي هو من أصحاب النار: يخلص الدين لله تارة، ويخلص للملائكة والأنبياء تارة. وقال - تعالى -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وصلى الله على محمد، وآله وصحبه وسلم^(١). اهـ.



(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، (٢/ ٢٧ - ٣٠).

منصوصُ الفقهاء من أئمة المذاهب على أن الاستغثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله أمرٌ محرّمٌ وشركٌ مُحْتَمٌ

وكلام أئمة الفقهاء، وفقهاء الأئمة من سائر المذاهب المتبوعة صريح في أن دعاء غير الله شرك. وهاك طرفاً منه.

يقول الإمام أبو حنيفة - رَحِمَهُ اللهُ -: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول المرء: أسألك بمعقد العز من عرشك وأكره أن يقول: وبحق أنبيائك، ورسلك، وبحق البيت الحرام.

وهذه العبارة مشهورة عن الإمام، وقد رواها الإمام القُدُوري في «شرح» على مختصر الكَرَخي عن الإمام بشر بن الوليد أنه قال : سمعت أبا يوسف يقول : قال أبو حنيفة .. وذكرها.

كما ونقلها عن شرح القُدُوري جماعة كبيرة من علماء الحنفية مستدلين بها على منع الاستغثة بالأموات عند الشدائد والملمات^(١).

ويقول الإمام البركوي الحنفي - رَحِمَهُ اللهُ - (٩٨١هـ): «وأما الزيارة البدعية فزيارة القبور لأجل الصلاة عندها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود عليها وأخذ تراها ودعاء أصحابها والاستعانة بهم. وسؤالهم النصر والرزق والعافية

(١) انظر للفائدة : «الاختيار لتعليل المختار» (١٦٤/٤) لابن مودود الموصلي الحنفي، و«جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١١٢٣/٢).

والولد وقضاء الديون وتفريج الكُربات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من الحاجات التي كان عبَادُ الأوثان يسألونها من أوثانهم فليس شيء من ذلك مشروعًا باتفاق أئمة المسلمين إذ لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين وسائر أئمة الدين. بل أصل هذه الزيارة البدعية الشريكة مأخوذة من عباد الأصنام»^(١).

ويقول الشيخ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي الحنفي (١٣٢٩هـ): «ومن أقبح المنكرات وأكبر البدعات وأعظم المحدثات ما اعتاده أهل البدع من ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني - رَحِمَهُ اللهُ - بقولهم: يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئًا لله، والصلوات المنكوسة إلى بغداد، وغير ذلك مما لا يعد، هؤلاء عبدة غير الله ﷻ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» [الأنعام: ٩١]. ولم يعلم هؤلاء السفهاء أن الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ - لا يقدر على جلب نفع لأحد ولا دفع ضرر عنه مقدار ذرة، فلم يستغيثون به ولم يطلبون الحوائج منه؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]!! اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك أو نعظم أحدًا من خلقك كعظمتك»^(٢).

ويقول العلامة نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي الحنفي (١٣١٤هـ): قال الشيخ محمد الأمين السويدي الشافعي: ولا يجوز ذلك إلا من جهل آثار الرسالة، ولهذه عمت الاستغثة بالأموات عند نزول الكربات يسألونهم ويتضرعون إليهم، فكان ما يفعلونه معهم أعظم من عبادتهم واعتقادهم في رب السموات»^(٣). اهـ.

(١) «زيارة القبور» (ص ٢٠ - ٢١)، وانظر: «جهود علماء الحنفية» (١١٣٧/٢)، وقارن بـ«إغاثة

اللهفان» (٣٧١/١) لابن القيم.

(٢) «التعليق المغني على سنن الدارقطني» (٤٠٣/٥).

(٣) «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص ٤٤٨).

ويقول العلامة صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي (ت ١١٢٠هـ):
«هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات
في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبلبات، وبهممهم تنكشف
المهمات، فيأتون قبورهم، وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك
منهم كرامات! وقرّروهم على ذلك من ادعى العلم بمسائل، وأمدهم بفتاوى
ورسائل، وأثبتوا للأولياء - بزعمهم - الإخبار عن الغيب بطريق الكشف لهم بلا
ريب، أو بطريق الإلهام أو منام!

وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد نجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة،
والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوّزوا لهم الذبائح
والندور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

وهذا كما ترى كلام فيه تفريط وإفراط، وغلو في الدين، بل فيه الهلاك الأبدي،
والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز
المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه هذه الأمة»^(١)، اهـ.

ويقول الشيخ مبارك المليي المالكي - رَحِمَهُ اللهُ - (١٣٦٤هـ) : «فإذا كان الدعاء
عبادة وجب أن يختص بالله، وأن يحتز فيه من الوقوع في الشرك، أو فيما هو ذريعة
إليه...»، وقال : «وإذا ما دعي غير الله فهو شرك صريح وكفر قبيح»^(٢)، اهـ.

ويقول أبو بكر الطرطوشي المالكي - رَحِمَهُ اللهُ - (٥٢٠هـ)، عند قوله - تعالى -:

(١) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (ص ١٥ - ١٦).

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ١٩٢ و ١٩٧) للشيخ مبارك المليي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] يقول: «فجمع الله بين الأصنام وبين آدم في اسم العبودية، فدلّت الآية على أن من دخل تحت العبودية لا يضر ولا ينفع، ولا يستأهل كل ذلك التعظيم، بل هو خلق محتاج قد لحقه ذل التكوين مفتقر إلى ما يفتقر إليه من دعاه»^(١). اهـ.

وجاء في «الإقناع» للحجاوي -الحنبلي- رَحِمَهُ اللهُ - (ت ٩٦٨هـ) ما نصه: «قال الشيخ: أو كان مبغضاً لرسوله أو لما جاء به -اتفاقاً-، وقال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم إجماعاً»^(٢). اهـ - أي: كفر -.

ويقول منصور البهوتي الحنبلي -رَحِمَهُ اللهُ - (ت ١٠٥١هـ) في «كشاف القناع» ما نصه: «قال الشيخ - يعني: صاحب «الإقناع» - (أو كان مبغضاً لرسوله أو لما جاء به) الرسول (اتفاقاً، وقال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم إجماعاً).

قال البهوتي - الشارح -: أي كفر؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»^(٣). اهـ.

ويقول ابن مفلح الحنبلي -رَحِمَهُ اللهُ - (ت ٧٦٣هـ) في كتابه «الفروع» -باب حكم المرتد- ما نصه: «قال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم»^(٤).

(١) «الدعاء المأثور» (ص ٣١ ٣٢)، وانظر: «جهود المالكية في توحيد العبادة» (ص ٤٣٠).

(٢) «الإقناع» (٤/ ٢٨٥ ط. التركي)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤).

(٣) «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨).

(٤) «الفروع» (٦/ ١٦٥).

ويقول العلامة علاء الدين المرداوي الحنبلي (٨٨٥هـ): «وقال الإمام أحمد وغيره من العلماء: في قوله - عليه أفضل الصلاة والسلام -: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»: الاستعاذة لا تكون بمخلوق»^(١).

ويقول العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقرئ الشافعي (٨٤٥هـ): «وشرك الأمم نوعان:

النوع الأول: شرك في الإلهية.

والثاني: شرك في الربوبية.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك. وهو شرك عباد الأصنام. وعباد الملائكة. وعباد الجن. وعباد المشايخ. وعباد الصالحين. الأحياء منهم والأموات.

الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويشفعوا لنا عنده. وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة. كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته. والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنصر على أنهم أعداء الله. وجميع الرسل ﷺ متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم. وما أهلك الله تعالى أمة من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله»^(٢).

(١) «الإنصاف» (٢/٤٥٦).

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٤٥) بتصرف يسير .

وأختم بأبيات رائقة بديعة من منظومة العبادي^(١) - رَحِمَهُ اللهُ - والموسومة بـ «هداية المريد إلى سبيل الحق والتوحيد» قال فيها :

ومن يقل غير الإله يملك ضرا ونفعا فهو أيضًا مشرك
ومن ينادي ميتا أو غائبا ويرتجيه راغبا وراهبًا
لدفع ضرر أو حصول نفع فذاك شرك عند أهل الشرع
كمن ينادي مستغيثًا بأحد أو مستعينًا أو رجا منه الولد
إذ ذاك في العادة ليس يقدر عليه إلا الواحد المقتدر
وكل ما استحال في العادات كطلب الأحياء من الأموات^(٢)
فلم يجز لمسلم أن يفعلَه وأنكر الشرع على من فعله
فما لكم يا معشر الجهال تدعون غير الله ذي الجلال
في جلب نفع أو لدفع ضرر أو بُرء سُقْمٍ وارتفاع شرّ
من ليس يغني نفسه من ضررها ولم يطق انقاذها من فقرها
وتستمدون من الأموات تيسير عسر وقضا الحاجات

(١) هو: أحمد بن محمد بن عوض العبادي اليماني رَحِمَهُ اللهُ اشتهر بدعوته للكتاب والسنة، ومحاربة البدع في اليمن سيما بدع القبورية، والأثر الوحيد المكتوب للعبادي هو منظومته التي أوردنا طرفًا منها «هداية المريد إلى سبيل الحق والتوحيد»، وهي منظومة متوسطة كلها في العقيدة والدعوة إلى التوحيد والاتباع، والتحذير من الشرك والابتداع، والرد على المخرفين والدجاجلة، كما وصفهم الشيخ البيحاني رَحِمَهُ اللهُ في التعليق عليها.

(٢) في الأصل: «الأصوات»، ولعل الصواب ما أثبتته.

ألم تروا أن الدعا عبادة لا يمترى فيه ذوو الشهادة
فمن دعا غير الإله أحدا يمنحه الخير ويكفيه الردى
فإنه لمن دعاه عابد سواء الجاهل والمعانند
وفي ثبوت النهي في الكتاب دلائل لمبتغي الصواب
يكفيك أن الله قال ادعوني كمثله ما قد قال فاعبدوني^(١)



(١) انظر: «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص ٤٢ ٤٣ ط. جامعة الإمام).

شبهات وجوابات^(١)

استدل من جواز الاستغثة وطلب الشفاعة من الأموات ببعض الشبه التي هي أوهى من بيت العنكبوت، ومنها:

□ أولاً : ما رواه القاضي عياض بسنده عن محمد بن حميد الرازي قال:

«وناظر أبو جعفر المنصور مالكا في مسجد النبي ﷺ فرفع أبو جعفر صوته، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله - تعالى - أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣].

وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وإن حرمة ميتًا كحرمة حيًا.

(١) وقد خلط أهل البدع بين مفهومي التوسل والاستغثة، فجعلوهما من باب واحد في الأحوال والأحكام، حيث يستدلون على جواز التوسل بما لا يصح الاستدلال به، إما من جهة ضعفه، وإما من جهة عدم دلالة على المطلوب، كاستدلالهم بما هو دليل على التوسل المشروع، ثم يجعلون ذلك دليلًا على جواز الاستغثة بالأموات وطلب الحوائج منهم، فأدلتهم على جواز التوسل هي عينها التي يستدلون بها على جواز الاستغثة، وهنا ذكرت أشهر ما يستدلون به، وبه يعرف كثير مما ورائه، وانظر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة» ضمن مجلة «الدراسات العقدية»، (١/ ٢٢ - ٥١).

وانظر للتفصيل مطولاً : كتاب «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة»، (١/ ٥٠٥).

فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله! أدعو مُسْتَقْبِلًا القبلة أم مُسْتَقْبِلًا رسول الله ﷺ.

فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أيبك آدم إلى الله - تعالى - يوم القيامة، بل استقبله، واستشفع به إلى ربك يشفعك قال الله - تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]»^(١).

وهذه الحكاية باطلة من وجوه:

١ - راوي هذه الحكاية عن مالك هو: محمد بن حميد الرازي، وفي روايته هذه ضعف من وجهين:

أولاً: من جهة ضعفه في نفسه، فهو ضعيف مع حفظه^(٢)، فقد تكلم فيه الحفاظ، قال البخاري: في حديثه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، بل قال أبو زرعة: صح عندنا أنه يكذب^(٣).

ثانياً: انفراده بهذه الرواية عن سائر أصحاب الإمام مالك، وأصحاب الإمام

(١) «الشفاء» (٢/ ٥٩٥ - ٥٩٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ١٠١)، و«الدرر السنية» (ص ٩ - ١٠) لدحلاز.

(٢) انظر: «الصحيح» (٧/ ٤٤٢) تحت الحديث رقم (٣١٥٥)، وانظر لتمام الفائدة: «الضعيفة» (١/ ٩٢) تحت الحديث رقم (٢٥).

(٣) «الجرح والتعديل» (٧/ ٢٣٢)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٣٠)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٢٦٢ - ٢٦٣).

مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول في مسائل الفقه، بل إذا روى عنه الشاميون ضعفوا روايتهم، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والبصريين، فكيف بحكاية تناقض صريح مذهبه من وجوه كثيرة تفرد بها أحد الخراسانيين الضعفاء^(١).

٢- هذه الرواية تناقض المشهور من مذهب الإمام مالك في صفة السلام على رسول الله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: «هذه الحكاية كذب بلا ريب من وجوه منها: أنها مخالفة لمذهب مالك ومذهب سائر الأئمة، فإنهم متفقون على أن مَنْ سَلَّمَ على النبي، ثم أراد الدعاء؛ فإنه يستقبل القبلة؛ كما روي ذلك عن الصحابة، وتنازعوا وقت السلام عليه، هل يستقبل القبلة أو القبر؟ على قولين»^(٢).

٣- أن الإمام مالكا - رَحِمَهُ اللهُ - كان من أبعد الناس عن البدع، وكان يكره قول الرجل: زرت قبر النبي، ويستعظمه، فكيف يستدل هنا بالآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ فهذا تناقض ظاهر يُنَزَّهُ عن مثله الإمام مالك^(٣).

ثم إن الاستدلال بالآية وانتزاع منها جواز المجيء عند قبر الرسول وطلب

(١) انظر: «جهود المالكية في تقرير توحيد العباداة» (ص ٤٢٧).

(٢) «تلخيص كتاب الاستغثة» (ص ٢٦)، وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨٦)،

و«الصارم المنكي» (ص ٣٧٣)، و«جهود المالكية في تقرير توحيد العباداة» (ص ٤٢٧).

(٣) انظر: «الصارم المنكي» (ص ٣٦٨ ٢٣٩)، و«جهود المالكية في تقرير توحيد العباداة»

(ص ٤٢٨).

الاستغفار منه بعد موته فقد قال قائلهم : فهم العلماء منها العموم للجائين يعني في حال حياته وفي حال موته.

وهذا - لعمر الله - استدلالٌ مُحَدَّثٌ مردودٌ، ليس عليه سلف الأمة وأئمتها من أهل الحديث والفقه والتفسير، حيث لم يفهم أحدٌ العموم بالمعنى المذكور^(١)؟ وسيأتي بيان هذا - بإذن الله - في موضعه.

□ ثانيًا : استدل من جَوِّز سؤال الأموات، وطلب الشفاعة منهم بحكاية تروى عن مجهول يُدعى (العتبي):

وهذه الحكاية ذكرها جماعةٌ من أهل العلم، فقد رواها البيهقي في «شُعَب الإيمان»^(٢)، وذكرها الإمام النووي في كتابه «المجموع»^(٣) - مستحسنًا إياها -، وذكرها ابن قدامة في «المغني» - بصيغة التضعيف -^(٤).

ونقلها الحافظ ابن كثير في «تفسيره» - ساكتًا عنها - حيث قال :

«وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي. قال: كنت جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال:

(١) وانظر للفائدة: «أسئلة طال حولها الجدل» (ص ٥٣ ٥٨) للشيخ أبي يوسف عبد الرحمن عبد الصمد رحمته .

(٢) (٣٤ / ٧) برقم (٣٨٨٠).

(٣) «المجموع» (١٥٧ / ٨).

(٤) «المغني» مع «الشرح الكبير» (٦٠٠ / ٣) مسألة رقم (٢٧٤٨)، حيث قال: «ويروى عن العتبي... ثم ساقها».

السلام عليك يا رسول الله. سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد جئتكَ مستغفراً الذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقاعِ أعظمُهُ فطابَ مِنْ طيِّبِهِنَّ القاعُ والأَكْمُ
نَفْسِي الفِداءُ لِقَبْرِ أَنْتَ ساكِنُهُ فيه العفافُ وفيه الجودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي، فبشّره أن الله قد غفر له^(١). اهـ.

وهذه الحكاية باطلة، وذلك من وجوه:

١ - **عدم دلالة الآية على مطلوب المخالف**؛ ويظهر ذلك من خلال معرفة معنى

الآية، حيث إن المراد بالمجيء في قوله تعالى: ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ﴾ هو المجيء المخصوص في حياته ﷺ وليس بعد مماته، وسياق الآيات ظاهر في هذا المعنى يدل عليه قوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فأتى لمن يأتي قبره الشريف مستغفراً ربه، أن يستغفر له الرسول ﷺ وهو في قبره حتى ينال التوبة والرحمة من الله في قوله: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾؟

فطلب الصحابة من النبي الاستغفار لهم أو الشفاعة، إنما ذلك مختص شرعاً، وثابت وقوعاً في حياته وليس بعد مماته، ونصوص القرآن دالة على هذا المعنى.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨).

قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ويقول - تعالى -: ﴿فَإِذَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وقال - تعالى -: ﴿فَبَايَعْتُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ويقول - سبحانه -: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

يقول - تعالى -: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

ويقول - سبحانه - في قول أبناء يعقوب -: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

وبالجملة فإن استغفار الرسل لأصحابهم، وسؤال أصحابهم لهم الاستغفار والشفاعة إنما ذلك في حياتهم.

وما سقناه من الآيات دليل واضح، وبرهان ساطع على ذلك، كما أن عدم دلالة الشرع تنصيصاً أو حتى بالإشارة على جواز، أو وقوع غير تلك الصورة، لهو دليل على المنع، فإن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، فعدم نقل ما تتوافر الهمم والدواعي على نقله مع قيام المقتضي لنقله وانتفاء المانع من نقله هو دليل على عدم.

وفي تقرير هذا المعنى يقول الحافظ ابن عبد الهادي -رحمته الله- : «ولم يفهم منها أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه في حياته ليستغفر لهم. وقد ذم -تعالى- مَنْ تخلف عن هذا المجيء إذا ظلم نفسه، وأخبر أنه من المنافقين فقال -تعالى- : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

وكذلك هذه الآية إنما هي في المنافق الذي رضي بحكم كعب بن الأشرف وغيره من الطواغيت دون حكم رسول الله ﷺ فظلم نفسه بهذا أعظم ظلم. ثم لم يجرئ إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له. فإن المجيء إليه ليستغفر له توبة وتنصل من الذنب. وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ أن أحدهم متى صدر منه ما يقتضي التوبة جاء إليه فقال: يا رسول الله! فعلت كذا وكذا، فاستغفر لي. وكان هذا فرقا بينهم وبين المنافقين.

فلما استأثر الله ﷻ بنبيه ﷺ، ونقله من بين أظهرهم إلى دار كرامته؛ لم يكن أحد منهم قط يأتي قبره ويقول: يا رسول الله! فعلت كذا وكذا؛ فاستغفر لي.

وَمَنْ نَقَلَ هذا عن أحد منهم؛ فقد جاهر بالكذب والبهت، وافترى على الصحابة والتابعين وهم خير القرون على الإطلاق.

هذا الواجب الذي ذم الله -سبحانه- مَنْ تخلف عنه، وجعل التخلف عنه من أمارات النفاق، ووفق له من لا توبة له من الناس. ولا يُعَدُّ في أهل العلم.

وكيف أغفل هذا الأمر أئمة الإسلام وهداة الأنام من أهل الحديث والفقه والتفسير ومَنْ لهم لسان صدق في الأمة فلم يدعوا إليه. ولم يحضوا عليه. ولم

يرشدوا إليه ولم يفعله أحد منهم البتة»^(١)!

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - : «ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد مثل ذلك، واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي، لا سيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعاً مندوباً؛ لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم بل قضاء حاجة مثل هذا الأعرابي وأمثاله لها أسباب قد بسطت في غير هذا الموضع.

وليس كل من قضيت حاجته لسبب، يقتضي أن يكون السبب مشروعاً مأموراً به، فقد كان ﷺ يُسأل في حياته المسألة فيعطيه لا يرد سائلاً، وتكون المسألة محرمة في حق السائل^(٢) اهـ.

ويقول العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني - رَحِمَهُ اللهُ - : فطلب الدعاء من الأنبياء بما فيه صلاح الدين أمر مرغوب فيه في الجملة إذا كان بحضرتهم، إلا أن صنيع كبار الصحابة يدل أن الأولي عدم الطلب والاكتفاء بعمل الخيرات؛ لأنه يبعث الأنبياء ﷺ على الدعاء والاستغفار للعامل بدون سؤال منه والله أعلم^(٣).

(١) «المصارم المنكي» (ص ٤٢٥ ٤٢٦).

(٢) ومن ذلك حديث معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لَا تُلْحِقُوا فِي الْمَسْأَلَةِ فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهِ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهَا أَعْطَيْتُهُ». رواه الإمام مسلم، كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة، برقم (٢٣٨٧) (٧/ ١٢٩ «شرح النووي»).

وانظر للفائدة : «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٠ و ٢٣٨ و ٢٨٩).

(٣) «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (٣/ ٧٧٦).

٢- **بطلان قصة العتبي في نفسها؛** فإسنادها مسلسل بالمجاهيل والضعفاء، فالعتبي لا يُعرف والأعرابي لا يُدرى من هو، ويزيد الرقاشي ضعيف، وعمرو بن محمد بن عمرو بن الحسين، ومحمد بن روح بن يزيد البصري، وأبو حرب الهاللي - سواء كان هو نفسه العتبي أو لا - فكلهم مجاهيل، فليس هذا الإسناد مما يُفرح به، أو يُحتج به، فهو إسناد مظلم.

لذلك قال الحافظ أبو محمد بن عبد الهادي - رَحِمَهُ اللهُ -: «وهذه الحكاية التي ذكرها بعضهم يروونها عن العتبي، بلا إسناد، وبعضهم يروونها عن محمد بن حرب الهاللي، وبعضهم يروونها عن محمد بن حرب عن أبي الحسن الزعفراني، عن الأعرابي».

وقد ذكرها البيهقي في كتاب «شعب الإيمان» بإسناد مظلم عن محمد بن روح ابن يزيد بن البصري، حدثني أبو حرب الهاللي قال: حج أعرابي فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتى أتى القبر، ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد وضع لها بعض الكذابين إسناداً إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كما سيأتي ذكره.

وفي الجملة: ليست هذه الحكاية المذكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضاً، ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة على مطلوب المعارض، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم، وبالله التوفيق»^(١).

(١) انظر: «الصارم المنكي» (ص ٣٣٨)، و«تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧).

ويقول العلامة الألباني - رَحِمَهُ اللهُ - بعد ذكره رواية البيهقي لحكاية العتبي:-
«وهذا إسنادٌ ضعيفٌ مظلم، لم أعرف أيوب الهاللي ولا من دونه، وأبو يزيد الرقاشي، أوردته الذهبي في «المقتنى في سرد الكنى» (٢ / ١٥٥) ولم يسمه، وأشار إلى أنه لا يعرف بقوله: «حكى شيئاً»، وأرى أنه يشير إلى هذه الحكاية، وهي منكرة ظاهرة النكارة، وحسبك أنها تعود إلى أعرابي مجهول الهوية! وقد ذكرها - مع الأسف - الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] وتلقفها منه كثير من أهل الأهواء والمبتدعة، مثل الشيخ الصابوني، فذكرها برمتها في «مختصره» (١ / ٤١٠) وفيها زيادة في آخرها: «ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي! الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له»، وهي في «ابن كثير» غير معزوة لأحد من المعروفين من أهل الحديث، بل علقها على (العتبي)، وهو غير معروف إلا في هذه الحكاية، ويمكن أن يكون هو أيوب الهاللي في إسناد البيهقي، وهي حكاية مستنكرة، بل باطلة، لمخالفتها الكتاب والسنة، ولذلك يلهج بها المبتدعة، لأنها تجيز الاستغثة بالنبي ﷺ، وطلب الشفاعة منه بعد وفاته، وهذا من أبطل الباطل، كما هو معلوم، وقد تولى بيان ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه وبخاصة في «التوسل والوسيلة»، وقد تعرض لحكاية العتبي هذه بالإنكار، فليراجعه من شاء المزيد من المعرفة والعلم»^(١).

والحاصل أن مثل هذه الحكايات والروايات لا يثبت بها حكمٌ أو شرعٌ، فضلاً عن أن يثبت بها عقيدة أو إيمان، «فما دام أنها ليست من سنة الرسول ﷺ ولا من

(١) «السلسلة الصحيحة» (٦ / ١٠٣٤) تحت الحديث رقم (٢٩٢٨).

فعل خلفائه الراشدين، وأصحابه المكرمين، ولا من فعل التابعين والقرون المفضلة، وإنما هي مجرد حكاية عن مجهول، نقلت بسند ضعيف فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد الذي هو أصل الأصول؟! وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نهى فيها عن الغلو في القبور والغلو في الصالحين عمومًا، وعن الغلو في قبره والغلو فيه ﷺ خصوصًا؟! وأما من نقلها من العلماء أو استحسناها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفى على بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم، وقد يخطئون في نقلهم واجتهادهم، وتكون الحجة مع من خالفهم، وما دمننا قد علمنا طريق الصواب فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان، فليس ديننا مبنيًا على الحكايات والمنامات، وإنما هو مبني على البراهين الصريحة والدلائل الصحيحة^(١).

□ ثالثًا:

يَسْتَدِلُّ مَنْ يُجَوِّزُ الاستغثة بالنبي ﷺ، بما رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٧/ ٦٣-٦٥) برقم (٣٢٦٦٥ - ت. عوامّة) (ما ذكر في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه) قال :

«حدّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن مالك الدّار، قال: وكان خازن عمر على الطّعام، قال: أصاب النّاس قحطٌ في زمن عمر، فجاء رجلٌ إلى قبر النّبي ﷺ فقال: يا رسول الله! استسقِ لأمتك؛ فإنّهم قد هلكوا، فأُتِيَ الرّجل في المنام فقيل له: «أنت عمر فأقرئه السّلام، وأخبره أنّكم مسقيّون، وقُلْ له: عليك

(١) «هذه مفاهيمنا» (ص ٧٦) بتصرف لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله .

الكَيْس. عليك الكَيْس». فَأَتَى عُمَرُ، فَأَخْبَرَهُ فَبَكَى عُمَرُ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ لَا أَلُو إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ.

والجواب عن هذه القصة من وجوه:

أولاً: عدم التسليم بصحة القصة، وبيان هذا من وجوه:

١ - ظاهر كلام كثير من أهل العلم يدل على أن مالك الدار - راوي القصة - غير معروف بالعدالة والضبط، فقد ذكره البخاري في «التاريخ الكبير»، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يذكر في جرحاً ولا تعديلاً، وكذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»^(١).

٢ - في القصة عننة الأعمش - مُحدِّث الكوفة وقارؤها -، وهو على علمه وحفظه - رَحِمَهُ اللهُ - إلا أنه في عداد الطبقة الثانية من المُدلسين عند الحافظ ابن حجر^(٢)، بل ومن المشهورين به^(٣).

٣ - تفرَّد مالك الدار - وهو غير معروف بالرواية -، وهذا مما يُشعر بضعفها، فمثل هذا الحَدَث العام هو مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، فترك نقله مُشعرٌ بضعفه.

(١) «التاريخ الكبير» (٣٠٤/٧)، و«الجرح والتعديل» (٢١٣/٨)، و«مجمع الزوائد» (١٢٥/٣).

(٢) في كتابه «طبقات المُدلسين» (ص ٣٣).

(٣) انظر: «جزء في أسماء المُدلسين» (ص ١٠٢) للحافظ جلال الدين السيوطي ضمن «مجموع فيه ثلاث رسائل في علوم الحديث».

ثانيًا: قد ذكرَ الحافظُ ابن حجر - رَحِمَهُ اللهُ - روايةَ ابن أبي شيبَةَ في «الفتح» فقال:

«وروى ابن أبي شيبَةَ بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السَّمان عن مالك الدار...». وساق القصة^(١).

وكلام الحافظ هذا قد يُفهم منه تصحيحه للسند، إلا أنه ليس صريحًا في ذلك، فقد يُفهم منه أيضًا تصحيح الإسناد إلى أبي صالح السَّمان فقط، ويبقى التوقف أو النظر في حال مالك الدار، وهذه طريقة مطروقة عند المحدثين.

وفي هذا يقول العلامة الألباني - رَحِمَهُ اللهُ - : «ولا ينافي هذا قول الحافظ: ...» بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السَّمان ...»: «لأننا نقول: إنه ليس نصًّا في تصحيح جميع السَّند، بل إلى أبي صالح فقط، ولولا ذلك لما ابتدأ هو الإسناد من عند أبي صالح، ولقال رأسًا: (عن مالك الدار ... وإسناده صحيح)، ولكنه تعمَّد ذلك؛ ليلفت النظر إلى أنَّها هنا شيئًا ينبغي النظر فيه، والعلماء إنما يفعلون ذلك لأسباب منها: أنهم قد لا يحضرهم ترجمة بعض الرواة، فلا يستجيزون لأنفسهم حذف السند كله، لما فيه من إيهام صحته لا سيما عند الاستدلال به.

بل يُوردون منه ما فيه موضع للنظر فيه، وهذا هو الذي صنعه الحافظ - رَحِمَهُ اللهُ -

(١) «فتح الباري» (٢/ ٦٣٩)، كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا. وأما الرواية التي فيها تسمية الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ﷺ وأنه الصحابي بلال بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهي رواية ضعيفة باطلة، إذ هي من رواية سيف بن عمر، وهو مُتَّفَقٌ على ضعفه عند المحدثين، وتفصيل ذلك تراه في «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢١ - ٤٢٣).

هنا، وكأنه يشير إلى تفرُّد أبي صالح السَّمَّان عن مالك الدار. كما سبق نقله عن ابن أبي حاتم، وهو يُحيل بذلك إلى وجوب الثبوت من حال مالك - هذا -، أو يشير إلى جهالته، والله أعلم^(١).

ثالثًا: على فرض صحة هذه القصة؛ فإنها لا تُقاوم - بحال - تلك النصوص الصريحة والأدلة الصحيحة التي جاءت في «الصَّحاح»، و«السُّنن»، و«المسانيد»، وبرواية المَرَضِيِّين الأثبات من نهيه الشديد ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد وأعيادًا. ولم يَشَمَّ رائحة العلم من ردِّ تلك النصوص المحكمة المتكاثرة، من أجل قصة فيها ما فيها من المآخذ والاحتمالات^(٢).

رابعًا: سُنَّة الصحابة التركية دالَّةٌ بكلِّ صراحةٍ ووضوح على نقيض ما دلَّت عليه هذه القصة، حيث كانوا ﷺ يستسقون ويتوسَّلون بدعاء الصالحين منهم.

خامسًا: وقوع الرؤيا بعد إتيان القبر، واستجابة الدعاء على إثر ذلك لا يدل مطلقًا على جواز الفعل نفسه؛ إذ قد يقع السؤال عند قبر النبي ﷺ، أو قبر غيره فيحصل المطلوب بأسباب، إما فتنة، أو استدراجًا، أو نحو ذلك، وهذا معروف معلوم^(٣).

وما أجمل ما قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - وبه نختم - : «وإنما اشتغلت قلوب طوائف من الناس، بأنواع من العبادات المبتدعة: إما من الأدعية، وإما من

(١) «التوسل أنواعه وأحكامه» (ص ١٣١).

(٢) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢٣).

(٣) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢٦).

الأشعار وإما من السماعاء. ونحو ذلك لإعراضهم عن المشروع، أو بعضه - أعني لإعراض قلوبهم - وإن قاموا بصورة المشروع، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عاقلاً لما اشتملت عليه من الكلم الطيب، والعمل الصالح مهتما بها كل الاهتمام - أغنته عن كل ما يتوهم فيه خير من جنسها.

ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا متشوره. ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته، كالأسحار، وأدبار الصلوات والسجود، ونحو ذلك، أغناه عن كل دعاء مبتدع، في ذاته أو بعض صفاته.

فعلى العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء من ذلك، ويعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن، فإنه من يَتَحَرَّ الخير يُعْطَهُ، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ»^(١).

هذا ما يَسَّرَ اللهُ جَمْعَهُ وبيانه في هذه الرسالة، والتي أسأل الله - جل جلاله - أن يكتب لنا بسببها الأجر والثوبة، وأن ينفع بها العباد، وأن يدخر لنا خيرها وبركتها في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.



(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٦٩ - ٢٧٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
حقيقة التوحيد - أنواعه وأقسامه، جوهره ولُّبه -	١١
معنى (الإله) - تفسيراً وتبصيراً -	١٥
العبادة والعبودية - وصفاً وتعريفاً -	٢١
الشرك الأكبر - حقيقته ومعناه -	٢٩
حقيقة شرك الأولين، وبيان أن شركهم واقع من جهة صرف الدعاء والعبادة لغير الله، ومن جهة جعلهم بينهم وبين الله وسائط وشفعاء	٣٤
وهنا مسائل:	
أولها: إقرار المشركين بالله خالقاً ورازقاً ومدبراً ومتصرفاً:	٣٤
ثانيها: بيان هذا الأصل - تنصيصاً واستدلالاً -:	٣٥
ثالثها: الاستغاثة بين المشروع والممنوع:	٣٩
رابعها: الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والصالحين، شرك مهين ومحادة لتوحيد رب العالمين:	٤١
خامسها: ليس عند مجوزي الاستغاثة خبر ملبح ولا نظر صحيح:	٤٣
سادسها: سؤال الموتى من دون الله هو أعظم الظلم والعدوان:	٤٤
قاعدة نافعة	٤٩
شرائع الدين وحقائق التوحيد، قد وقع بيانها على وجه الكمال والتمام، وعدم نقل ما تتوافر الهمم والدواعي على نقله مع انتفاء المانع دليل على العدم:	٤٩

الموضوع

الصفحة

- مجازفات وانحرافات: ٥٢
- ردودٌ وتعقبات..... ٥٤
- حقيقة حياة الأنبياء - عليهم السلام -: ٥٤
- معجزات الأنبياء منقطعة بموتهم إلا معجزة القرآن: ٥٧
- ليست حياة الشهداء حياة دنيوية من جنس المعهود، بل هي حياة غيبية، ليست دنيوية ولا أخروية: ٥٨
- الكرامات؛ إما رحمانية وإما شيطانية، والشرع فرقان بين هذه وتلك: ٦٠
- خلاصة الجواب: ٦١
- (فائدة نفيسة): حُكم المخالف بين الإعذار والإهذار ٦٣
- تحقيق المناط في كون الدعاء أشرف العبادات وأكرم شيء عند رب الأرض والسموات ٦٦
- الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، فالاستغاثة عبادة، وهي أخص الدعاء وأجلّ أحوال الالتجاء - تدليلٌ وتعليلٌ - ٧٦
- مسألة في معنى قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ترجيحًا وتوجيهًا ٨١
- صد قول المعتدي بأن الدعاء ليس شركًا إلا إذا تضمن اعتقادًا في المدعو
- ردًا ونقضًا - ٨٦
- أحكام الطلب، ومتى يكون دعاءً أو الدعاء أنواعه وصوره - تحريرًا وتقريرًا - ٨٩
- قواعدُ أربعٌ تجمعُ أصولَ ما قد سبق ٩٤
- منصوصُ الفقهاء من أئمة المذاهب على أن الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله
- أمرٌ محرّمٌ وشركٌ مُحْتَمٌّ ٩٨

شبهات وجوابات	١٠٥
أولاً: مارواه القاضي عياض بسنده عن محمد بن حميد الرازي	١٠٥
ثانياً: استدل من جَوَز سؤال الأموات، وطلب الشفاعة منهم بحكاية تروى عن مجهول يُدعى (العُتبي):	١٠٨
ثالثاً: الاستدلال بقصة مالك الدار	١١٥
والجواب عن هذه القصة من وجوه	١١٦-١١٨
فهرس الموضوعات	١٢١



تم بحمد الله